أحاديث في العدل والإحسان

من محاضرات الإمام المجدد عبد السلام ياسين



إعداد: رشيد حليم

أحاديث في العدل والإحسان

من محاضرات الإمام المجدد عبد السلام ياسين



أحاديث في العدل والإحسان

من محاضرات الإمام المجدد عبد السلام ياسين

إعداد: رشيد حليم



الكتاب: أحاديث في العدل والإحسان.. من محاضرات الإمام
المجدد عبد السلام ياسين رحمه الله

إعداد: رشيد حليم

الطبعة الثانية: 1443هـ/2021م

رقم الإيداع القانوني: 978-605-70912-6-0

الطباعة والنشر: دار إقدام للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه

تقديم

هذه المجالس محاضرات قدمها الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله ما بين عامي 1410 و1417 للهجرة (1989–1997)، بين يدي ثُلَّة من المؤمنين في بيته بمدينة سلا (المغرب). انعقدت التسع الأُوَّل منها، قُبيْل فرض الإقامة الجبرية عليه أواخر شهر دجنبر 1989، أما الاثنتان الباقيتان فقد سُجِّلتا خلف أسوار الحصار.

بيَّن في هذه المجالس رحمه الله نظرتَه المنهاجية لتاريخ المسلمين، ورؤيتَه لمستقبل الدعوة وبناء دولة الإسلام، شارحًا مخطط عمل كاملاً لما ينتظر جند الله من واجب بناء أمة الإسلام، وما ينتظرهم من جهادٍ وصبر.

ومع ما حَوتْه كتبه التي صدرت قبل وبعدُ، من تفصيل شامل لاقتران غايتي الإحسان والاستخلاف وثنائية الدّعوة والدّولة، إلا أن لهذه المجالس خصوصيةً نوعيةً، ذلك أن لمثول المعلم المربِّي، بنبرة صوته وحركاته وسكناته وأحواله، الأثرَ البالغ والطاقةَ المحركة في تبليغ المعاني وترسيخ الفهم واستنهاض الهمم، بالحال قبل المقال، حدَبًا على من يخاطبهم، وهم كانوا الطليعةَ المجاهدةَ من ذوي السابقة في تأسيس العمل وبناء الدعوة والجهاد، ثم لمن يأتي بعدهم من أجيال.

افتتح رحمه الله هذه المجالس بقوله: «نتحدث في أحاديثنا هذه عن العدل والإحسان. نعرض فيها لنظرتنا إلى ما ينتظرنا من واجب البناء، بناء أمة

الإسلام وبناء دولة الإسلام. نساهم في هذا البناء، فلسنا وحدنا في الميدان، وإنما نحن فرع من هذه الشجرة الطيبة المباركة الزكية، شجرة الإسلام التي أخذت دوحتها الشريفة تزهر وتثمر في كل بقاع الأرض. مساهمتنا، أهلَ العدل والإحسان، في تبليغ كلمة الإسلام تبدأ من العبد وهو يسمع نداء ربه عز وجل يخاطب الإنسان، كلَّ الإنسان... من هنا يبدأ تفكيرنا ومن هنا يبدأ عملنا ومن هنا تبدأ حركتنا».

ولضرورة معرفة المؤمن المجاهد لإقامة دين الله في الأرض لنفسه وللعالم وما يدور فيه، وللكون ونواميسه التي وضعها الله عز وجل، ثم الشروط التي بها يكون عمل المؤمنين صالحا في ميزان الشرع، نافعا ذا جدوى في معمعان الجهاد، فقد توسع الكلام في هذه المجالس ليشمل الحديث عن الحكم والسياسة والصراعات العالمية، وموقف الإسلام من القضايا الإنسانية ومن مستقبل البشرية ومن حاضرها. قال رحمه الله: «نريد أن نعرف السنة كاملة بما فيها عبادة الفرد، ونظام المجتمع، والحكم وتسيير الاقتصاد، وحضور الأمة في العالم، ثم معرفة معنى الإنسان ورسالة المسلم في هذا الوجود».

ذلك لأن الإرادة المتجهة إلى الخير الملبِّية لأمر الله عز وجل، الراجية جزاءَه سبحانه، لا بد لها أن تستنير بخبرة العقل وبتجربته، وأن تنظر في النفس وفي العالم وفي العمل وشروطه، لتخطط لمستقبل الإسلام الذي بشّر به المصطفى صلى الله عليه وسلم خلافةً ثانية على منهاج النبوة بعد مراحل العض والجبر. وقد اتخذ الإمام رحمه الله حديث الوعد النبوي بالخلافة الثانية على منهاج النبوة دليلا ونِبْراساً، فشرح معانيه ومراميه، وفصل في انتقاض عروة الحكم وانتقاله من الشَّد الذي كان عليه زمان النبوة والخلافة الراشدة إلى انحلال، انتقاضا في العَقد الشرعي الذي عليه ينبني الحكم في الإسلام، بين الحاكمين والمحكومين.

روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة، ثم سكت**»[1]

عاش المسلمون في ظل حكم السيف قرونا خلَّف فيهم عقلية الخنوع والاستكانة للظلم، فشُلَّت الإرادات وانكمشت العقول وتعطل الاجتهاد، وإن الرجوع إلى ما قبل الفتنة، وإلى ما كان أثناءها، وما تخلف عنها من أحداث، وإن تجديد الوعي بهذا التحول الخطير في تاريخ المسلمين لَهِيَ المفاتيح لفهم ماضينا وتاريخنا، ومن ثَمَّ الاستعداد لمستقبل الخلافة على منهاج النبوة إن شاء الله تعالى. قال رحمه الله: «تلك فترة حساسة من الضروري أن ننكب عليها لنعرف كيف انحرف الإسلام، وكيف انتقضت عراه منذ الانقلاب الأموي».

كما تناولت هذه المجالس أيضا مسألة الشورى والبيعة على ضوء القرآن والسنة النبوية، والدعوة والدولة وما بينهما من علاقات، وفصَّلت في مفهومي الفتنة والجاهلية، والعلاقة بين الشورى والديمقراطية. ثم بسط الإمام رحمه الله الكلام بعد ذلك عن دولة الإسلام في مستقبل الخلافة الثانية الموعودة، وكيفية تعامل الدولة بعد قيامها وبعد بناء المجتمع الإسلامي وإعادة تأسيسه، وكيف يكون السلطان مؤيدا وناصرا ووازعا مع القرآن، قال رحمه الله: «لغد الإسلام نريد أن تكون الدعوة هي السيدة، والدولة تخدمها وتهيئ لها المناخ المناسب لتربية الأجيال لإقامة المجتمع الأخوي الإسلامي المنشود، نموذجُه

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير، 18406.

العالي العمران الأخوي الذي قدمه الإسلام للإنسانية في عهد البعثة والخلافة الراشدة».

وكان يُذَكِّر في كل وقت وحين بمصير العبد وعلاقته بربه، فما يغني البحث والحديث في المنهاج النبوي وفي الخلافة على منهاج النبوة إن لم يبزغ في القلوب نور الإيمان، ولم تسطع فيها شمس الإحسان، ولم يكن التقرب إلى الله مسدِّدا للسير. يقول: «يا أخي، لا يفْتِنَنَّك الكلام عن تاريخ مضى، وحاضر مؤلم، ومستقبل هو في طي الغيب، عن نفسك ومصيرها بعد الموت!».

ولقد فرِّغت هذه المجالس مكتوبا، مع بعض التصرف ليتضح المعنى، إذ رُوعِيَ في صياغة النص المكتوب حذفُ كل تكرار أو استدراك كان يستدعيه الخطاب لجلب انتباه السامع والمشاهد! ثم إنه قد عُمد إلى توثيق الآيات برواية حفص عن عاصم، وضبط الأحاديث والنصوص بالرجوع إلى مصادرها. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

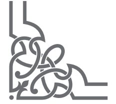
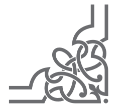
رشيد حليم

27 رمضان 1441 الموافق لـ20 ماي 2020




إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[3].

أسأل الله جلت قدرته أن يجعلنا وإياكم من الفائزين، إنه هو الكريم سبحانه.

(1) سورة آل عمران، الآية 102.

(2) سورة النساء، الآية الأولى.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان 70-71.



المجلس الأول

ليلة الخميس 2 ربيع الثاني من سنة 1410 الموافق لـ 2 نونبو 1989

أيها الأحبة، أيها الإخوة الكرام، أيها الحاضرون، أيها المؤمنون، أيها المسلمون، أيها الناس أجمعون.

إن من يدخل غمار الظهورعلى الساحة وغمار السياسة والتأثير في الرأي العام، يقوم إليه من كل جهة معارضون ومعاندون، حاقدون منتقدون، قامعون منتظرون. ورهان كل هؤلاء الأمةُ الصامتة التي لا تكاد تسمع عن الإسلام وعن الصحوة الإسلامية إلا ما يُشوِّه سمعتها. فإن للأغنياء الأقوياء أجهزةً للقمع وأبواقًا لتشويه السمعة.

من يدخل معركة المزاحمة لإبلاغ كلمته وإعلانها يتعرض لكيد المتربصين وافتراء المفترين، وتلفيق الملفقين، لا سيما إذا قال كلمته وثبت عليها زمانا دون أن يتنازل أو يداهن ودون أن يهون. وهذا دأب «جماعة العدل والإحسان»[1].

نتحدث في أحاديثنا هذه عن العدل والإحسان. نعرض فيها لنظرتنا إلى ما ينتظرنا من واجب البناء، بناء أمة الإسلام وبناء دولة الإسلام. نساهم في هذا

---

(1) جماعة إسلامية مغربية أسسها الإمام عبد السلام ياسين مرشدها العام سنة 1980، وتسمت بـ«جماعة العدل والإحسان» سنة 1987.

البناء، فلسنا وحدنا في الميدان، وإنما نحن فرع من هذه الشجرة الطيبة المباركة الزكية، شجرة الإسلام التي أخذت دوحتها الشريفة تُزهر وتُثمر في كل بقاع الأرض. مساهمتنا أهلَ العدل والإحسان في تبليغ كلمة الإسلام تبدأ من العبد وهو يسمع نداء ربه عز وجل يخاطب الإنسان، كلَّ الإنسان، كافرا كان أو مسلما، من أي دين كان، ملحدا أو دهريا، أو لا أدريا. الله عز وجل يخاطب الإنسان أيّاً كان. من هنا يبدأ تفكيرنا ومن هنا يبدأ عملنا ومن هنا تبدأ حركتنا.

فأنا العبد بين نداءات إلهية تخاطبني وتستحثني وتبشرني وتوجهني. نداء الله إلى الإنسان في مثل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا، إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ، بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾[1]. الخطاب الإلهي الموجه للإنسان في القرآن الكريم ينذره ويخبره أنه في هذه الدنيا كادح، وأنه سيلقى ربه بعد موته، وبعد الموت جزاء، مع أصحاب اليمين إن آمن وأطاع ربه، أو مع أصحاب الشمال إن كفر وأعرض عن نداء ربه.

من هنا نبدأ، لا مِن طرح السياسيين المفكرين الذين يبنون خطابهم على الجدلية والصدامات السياسية، وآخر الأحداث على الساحة العالمية، فإنما هي علاقات بين العباد على الأرض في غفلة عن الله عز وجل، غير حاضرة مع ندائه، غير عارفة بوجوده، غير منتظرة للقائه بعد الموت. نلحُّ على ذلك كثيرا لأن هيمنة الفلسفة الغربية المادية الإلحادية تكاد تزحزحنا عن إيماننا

(1) سورة الانشقاق، الآيات 6-15.

وعن مقتضياته، فيوشك أن تسمع أو تقرأ من يتحدث عن الإسلام دون أن يذكر الله عز وجل ولا الآخرة، فذلك ليس في قاموس الفكر العصري المتحضر المتطور. التطور في عُرفهم رهين بالسكوت عن الغيب، فطالما عُيِّر المسلمون بأنهم غيْبِيُّون فيتأثر بعضهم ويسكت عن الجوهر ويسكت عن الحق.

وإن كنا في حديثنا عن العدل والإحسان لا بد أن نتعرض لحكم الحكام والساسة والضجيج في العالم والصراعات العالمية، وموقف الإسلام من القضايا الإنسانية ومن مستقبل البشرية ومن حاضرها فإن حديثنا ذاك لن يكون إلا ضربا من كلام السياسي باسم الإسلام والإسلام منه بريء. ليقولوا عن جماعة العدل والإحسان إنهم صوفية مخرفون يقومون الليل يذكرون الله يقرؤون القرآن، فما عساهم يستطيعون أن يفعلوا لتغيير واقع الأمة! حسبنا أن نرجع إلى نداء ربنا فنسمع التحذير الإلهي العزيز. وأسمع، أنا العبد، بشارةَ ربي عز وجل لمن أطاعه وسمع نداءه فأطاع وعبد وخضع وجاهد في سبيله: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[1].

سمعت التحذير ثم سمعت البشارة، فطار قلبي شوقا إلى ما عند الله عز وجل، ورفْرَفت روحي تلهُّفا على ما أعد الله عز وجل من رضاه ومن مقامات القرب لعباده الصالحين. ثم قرأتُ قرآن ربي فإذا بي أجد أمراً آخر هو بين التحذير للإنسان الكادح، وبين البشارة آخر الأمر للنفس المطمئنة. نداء موجه للإنسان من حيث كونُه إنسانا، وبشارة موجهة للمصطفَين من عباد الله الصالحين، وبين هذين النداءين نداء للمؤمنين جماعة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أوامرَ تكليف.

(1) سورة الفجر، الآيات 30-32.

بين الأمر الفردي الموجه للعبد بالتحذير والإنذار والبشارة الفردية للنفس المطمئنة، أمر جماعي تكليفي للذين آمنوا. ومن هذه الأوامر الجليلة قول الله عز وجل ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**﴾[1]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾[2]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[3].

فأنا العبد، في إنسانيتي المجردة، سمعت تحذير ربي، ثم سمعت بشارة ربي للنفس المطمئنة، بعد أن كنت مشتت الفكر، موزع الهَمِّ، ممزق العاطفة، محقورا في المجتمع، مظلوما مرذولا. جمعني تحذير ربي وبشارة ربي، وأمْر ربي بأن أجاهد في سبيله من أجل إقامة العدل والإحسان، وأعطاني وجهةً لكي أكون في الدنيا فاعلا مؤثرا قويا، ودلَّني على معنى وجودي في هذه الأرض. ذلك هو الفرق بين المؤمن المجاهد في سبيل الله، المندفع إلى الواجب الجهادي تلبية لنداء الله، المصدق لبشارة الله عز وجل، المستيقظ بعد أن سمع تحذير الله عز وجل، وبين العامل للقومية بغضب عصبي لمصلحة أو لرد فعل، أو لمجرد انسياق مع تيار يجري به العمل في العصر والمِصْر. نحن أصحاب مبادئ لا نتنازل عنها، وأهل صدق مع الله، نسأله سبحانه وتعالى أن يزيدنا وإياكم صدقا.

فما العمل إذن؟ لا بد أن تكون حركتي على الأرض منضبطة منظمة، فلا جدوى للحركات الفوضوية، ولا جدوى للعمل الفردي ولا جدوى للعمل الذي يتردد بين السَّلب والإيجاب كلما ظهرت له فكرة تبعها، وكلما تحول

(1) سورة الأعراف، الآية 28.

(2) سورة النحل، الآية 90.

(3) سورة النساء، الآية 57.

في خلق الله وفي عالم الله حدثٌ تحولَ معه. لا بد من خطة ثابتة، لا بد لنا من منهاج. وأخصص ما بقي للحديث عن المنهاج.

الفرق بيننا وبين أصحاب المنهجيات الفلسفية وبين أصحاب الأيديولوجيات السياسية، وبين أصحاب اللامنهجية الانتهازيين، أننا نتبع طريقا أُمليت على البشر من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى، وتلقاها العباد بالقبول فخالط الإيمان بها بشاشة قلوبهم، وانْبرَوْا يلبّون داعي الله عز وجل. لكن أوامر الله سبحانه وتعالى للعباد فرادى وجماعة، أوامر كثيرة، لا بد لها من تنظيم، وهذا ما تؤديه صيغة كلمة «منهاج»، فهي على صيغة مفعال، اسم آلة كما يقول النحاة والصرفيون. و«منهاج» غير «منهج»، لأن المنهج أو المنهجية عند الأكاديميين الجامعيين هي كيفية لترتيب أفكار وتوضيبها وتنظيمها. والإيديولوجيا هي أفكار صنعها البشر وفسَّروا بها ظواهر التاريخ وظواهر الاجتماع وظواهر السياسة، ونظروا إلى المستقبل من خلال ما صنعوه. لا بد أن نتحدث عن الأيديولوجيا وإن ماتت ودفنها أصحابها. ليست الأيديولوجية الماركسية، وهي أم الأيديولوجيات في الوقت الحاضر، موؤودة صدر بها الناس لكي يدفنوها بعيدا، ولكن ماتت موتتها الطبيعية، وهذه مراسيم دفنها في أوروبا الشرقية، وهي الآن تُدفن في موسكو معقِلها وفي الجمهوريات السوفياتية. لكن التابعين من ذرارينا وفلاسفتنا، في العالم الثالث وخاصة في المجتمعات الإسلامية، لا يزالون يتشبثون بأذيال الأيديولوجية العتيدة، لأنها هي بضاعتهم لا يعرفون غيرها.

لا بد لنا إذن من منهاج، وذلك نجده في سيرة رسول الله ﷺ، فنسأل المصطفى ﷺ، وسنته، كيف نحقق العدل والإحسان على الأرض؟ كيف

نوحِّد الجهود؟ كيف نقيم أمر الله عز وجل تباعا حتى نوحد الأمة؟ ما العمل يا رسول الله؟

الجواب الصحيح في حديث رسول الله ﷺ الصحيح على صورة بشارة تخطط لنا المستقبل وتلقي لنا ضوءاً على الماضي، وتعلمنا كيف نتعامل ونتفاعل مع الحاضر.

روى الإمام أحمد رحمه الله في مسنده بسنده عن حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: «**كنا قعودا في المسجد مع رسول الله ﷺ، وكان بشير رجلا يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشني، فقال: يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله ﷺ، في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة، ثم سكت**»[1]. هكذا في نسخة المسند الخطية، والصواب كما صححه المحدثون هو: كنا قعودا في مسجد رسول الله ﷺ.

نقرأ: «خلافةٌ» على منهاج النبوة بالرفع، على أنها فاعل «كان» التامة، بخلاف «ملكـًا جبريةً» و«ملكا عاضـًا» على أنها خبر لـ«كان» الناقصة، وفيه إشارة إلى النقص، والحديث كله تفسير دقيق لأحداث التاريخ.

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير، (18406).

ذلك أن تطور تاريخ المسلمين من نبوةٍ ثم خلافةٍ راشدة، ثم إلى ملكٍ عاضٍّ فجَبريٍّ، غائب عن أذهان المسلمين. ولست أشك أن المفتاح لفهم تاريخنا يكمن في تدبر هذه النقلة الفظيعة من الهداية النبوية والخلافة الراشدة إلى العض والجبر. هذا التحول الذي نسيَته الأجيال اللاحقة لم يكن غائبا عن الصحابة رضي الله عنهم، ولا عن التابعين. وإن تجديد الوعي بهذا التحول الخطير في تاريخ المسلمين لهو المفتاح لفهم ماضينا وتاريخنا. وإن لم نفعل فلن نستطيع أبدا أن نخطط لمستقبل الإسلام، ولا لمستقبل الخلافة الثانية التي جاء هذا الحديث الشريف يبشرنا بها، لكي يشُدَّ من أزْرنا فنمضيَ على هدى من الله وعلى هَدْي من رسول الله ﷺ، نطلب ما بشر به الله ورسوله ﷺ.

الدليل على أن هذا لم يكن غائبا عن الصحابة ولا عن التابعين ما جاء في نفس السياق من هذا الحديث عند الإمام أحمد رحمه الله، قال الحبيب بن سالم التابعي، وهو راوي الحديث: «**فلما قام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه، فقلت له أرجو أن يكون أمير المؤمنين، يعني عمر، بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز فسر به وأعجبه**». إذن كانوا ينتظرون أن ينتهي الزمان الذي جاء به قدر الله ولا رادَّ لقضاء الله عز وجل. ولإيماننا بوعد الله عز وجل، يَسِمُنا الخصوم بالخُرافية والغيبيَّة، فلا يمكن في زعمهم أن نكون فاعلين في العالم ونحن نؤمن بالخرافات. الإيمان بالقدر ركن من الإيمان، وقد جرى قضاء الله وقدره سبحانه بأن يكون ثمَّةَ تدهورٌ في تاريخ المسلمين بلاءً من الله سبحانه وتعالى. وقد أفردت للموضوع كتابا مستقلا[1] يصدر قريبا لما لذلك من أهمية.

---

(1) نظرات في الفقه والتاريخ، للإمام عبد السلام ياسين، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1989.

كان الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك كان التابعون ينتظرون إذن أن يتصرَّف قدر الله سبحانه وتعالى فينقضيَ عهد الملك العاض والجبري، ثم تكون الخلافة على منهاج النبوة. وظن التابعي سيدنا حبيب بن سالم رضي الله عنه أن صاحبها هو عمر بن عبد العزيز. ولا تزال قلوب المسلمين وأفكارهم تلتفت إلى هذا الرجل الفذِّ عمرَ بن عبد العزيز، الذي يمثل خروجه الفريد في التاريخ الإنساني من دواعي المُلك والبَسْطة والنّفوذ إلى أن يكون الرجل الزاهد الذي حاول أن يخرج بأمر المسلمين وإمارتهم العامة من الملك إلى الخلافة الراشدة وأن يعيدها كما كانت، لكنهم لم يتركوه فسَمُّوه رضي الله عنه وقتلوه.



المجلس الثاني

ليلة الخميس 9 ربيع الثاني 1410 الموافق لـ 9 نونبر 1989

إخوتي الكرام، في حديثنا الأول من أحاديث العدل والإحسان رأينا كيف يستمع المؤمن إلى نداء الله عز وجل للإنسان يخبره فيه بكدحه وبمآله وانتقاله إلى الدار الآخرة في مثل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[1]، ورأينا كيف يستمع المؤمن إلى بشارة الله عز وجل عبادَه الصالحين في مثل قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2]، ورأينا كيف يستقرئ المؤمن ما جاء في كتاب الله عز وجل من نداءات التكليف الموجه إلى جماعة المؤمنين بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو كثير في القرآن الكريم، نزل بصيغة الأمر والنهي، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[3]. ورأينا، أيها الإخوة، كيف ينطوي عند المؤمن المحسن اليقظِ الذاكرِ ربَّه عز وجل، المستعدِّ للقائه، النداءُ الفردي في التكليف الجماعي، دون أن يغيب عنه أنه مُبَشَّر، إن آمن

(1) سورة الانشقاق، الآيات 6-16.

(2) سورة الفجر، الآيات 30-32.

(3) سورة النحل، الآية 90.

وعمل صالحا وطلب مقامات الإحسان عند الله عز وجل، ليكون هو تلك النفسَ المطمئنَّة الراجعةَ إلى ربها.

انطوى عند المؤمن النداء الفردي في التكليف الجماعي، فهو من ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ الذين كُلِّفوا بعمل الصالحات وأُمروا بالعدل والإحسان، دون أن يغيب عنه، وهو في غمار الجهاد وسط الأحداث، ذلك النداء الفردي. ورأينا أيضا كيف يسترشد المؤمنُ النبيَّ ﷺ الهاديَ إلى الصراط المستقيم، يسأله ما العمل؟ فيجيء الجواب النبوي في الحديث المنهاجي الذي ينظم سلوك المؤمنين، وينبغي كذلك أن ينظم سلوكَ الجماعات الإسلامية، وينظم جنودَ حزب الله في مستقبل الأيام. ذلك الحديثُ العظيم الصحيح الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه، ولا نَمَلُّ نكرره حتى يرسخ في الأذهان ليكون دليلا للعمل. يقول فيه الحبيب المصطفى ﷺ هاديا أمتَه إلى يوم القيامة: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إن شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت**»[1]. هناك إذن خلافة أولى بعد النبوة، وخلافة ثانية بعد عهود الملك العاض والجبري. إلى هذا الوعد النبوي يجب أن تشْرئِبَّ أعناقنا وتَتوَتَّر جهودُنا.

في حديثنا هذا الثاني من أحاديث العدل والإحسان، ليلة الخميس التاسع من ربيع الثاني سنة عشر وأربعمائة وألف، نتحدث إن شاء الله عن ضرورة معرفة

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير، (18406).

المؤمن، المجاهد لإقامة دين الله في الأرض، للنفس وضرورة معرفته للعالم، ثم ضرورة معرفته للعمل. ينبغي أن يعرف نفسه فردا، ينبغي أن يعرف نفسه جماعة، ينبغي أن يعرف العالمَ وما يدور فيه، والكونَ ونواميسه التي وضعها الله عز وجل، ثم الشروطَ التي بها يكون عمله صالحا في ميزان الشرع، نافعا ذا جدوى في مَعْمَعان الجهاد.

هي إذن خلافة على منهاج النبوة، تصبُو إليها الأفئدة وتتوطَّد نحوها جهود الصالحين الصادقين. يقول رسول الله ﷺ: «**ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوة**»، تكون.. ولكن من يُكوِّنها، من يفعل ذلك التكوين؟

في عقل الغافل عن الله، والملحد عن دين الله، والمشرك بالله الكافر به، الناس يفعلون في غياب كامل عن الله عز وجل. ونحن نؤمن أن الله عز وجل خلقنا وما نعمل، كما أخبر بذلك أمينه وخليله إبراهيم عليه السلام عندما خاطب قومه قائلا: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[1]، فالله الخالق هو مُكَوِّن هذه الخلافة الثانية، لا تكون من تلقاء نفسها، لكن سُنة الله عز وجل اقتضت أن يكون العباد هُمُ السَّاعين في الأرض، المتدافعين في الأرض، المسؤولين عن أعمالهم، نجاحا أو فشلا. لا بد لنا إذن أن ننفُض عنا غبار التَّواكل، تواكل القاعد في الزاوية المنتظرِ بشرى رسول الله ﷺ بأنها تكون خلافة على منهاج النبوة، ينتظر المهدي. ما هكذا ينبغي أن يكون المؤمنون، بل ينبغي أن يُشمِّروا عن ساعد الجد وأن يسألوا الله عز وجل أن يوفِّقهم لتكون الخلافة على منهاج النبوة على أيديهم. إن الخلافة على منهاج النبوة لن تكون إلا بفعل فاعل، هذا الفاعل هو جماعة المسلمين. وهم الآن جماعات، إذ كل من انبرى بصدق وإخلاص لينصر دين الله فهو من حزب الله.

(1) سورة الصافات، الآيتان 95-96.

ينبغي أن ينبري جند الله وحزب الله ليحققوا الخلافة على منهاج النبوة. والخلافة على منهاج النبوة تغيير بعد عهود الملك العاض والملك الجبري، تغيير يرجع بالأمر إلى أحضان الكتاب والسنة بعد أن حاد عنها زمانا. وقد أذن الله عز وجل وأخبر أنه لن يغير ما بالناس إن لم يغيروا ما بأنفسهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. قال المفسرون إن هذه الآية جاءت في سياق النَّفي أن الله لا يغير ما بقوم من نِعَمٍ، لكن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السَّبب، كما يقول الأصوليون. لا بد للمسلمين إذن أن يغيروا ما بأنفسهم، ابتداء من الفرد الذي لا بدّ أن تتربى نفسه على الإيمان بالله عز وجل، وإفراده سبحانه وتعالى بالطاعة من دون سائر الخلق، وأن تتربى على حبه وحب رسوله وذكر الله الدائم استعدادا للقائه.

في كتاب الله سبحانه وتعالى تذكير للإنسان بنفسه وتحذير له من نسيانها، وتبصير بما يجب أن يفعل لهذه النفس. يُذكّر الله عز وجل العبد بنفسه في سياق وجود الإنسان في الكون، في قوله عز وجل وجل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾[2]. إن المقصود من هذا التذكير هو أن يذكر الإنسان مصيره إلى الله عز وجل حين يحضر للحساب والجزاء. يقول الله عز وجل في سورة الانفطار: ﴿إِذَا السَّمَاءُ

(1) سورة الرعد، الآية 12.

(2) سورة التكوير، الآيات 1-14.

انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1]، والمقصود تذكير للإنسان بوقوفه أمام الله عز وجل، وتذكير بالآخرة.

ليس المقصود بمعرفة النفس التي ننشُدُها، هي هذه المعارف التي تسمى عند غيرنا في الحضارة والثقافة الحديثتين بعلم النفس، الذي يُعنى بتركيب الأعصاب، ووظائف المخ، والأمراض التي تعْتري الإنسان، ومراحل حياته من طفولة إلى مراهقة إلى شباب إلى كهولة إلى شيخوخة، إنما المقصود تذكير النفس بمصيرها عند الله عز وجل. يخبرنا الله عز وجل عن هذه النفس مُقْسِما بها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2]، توجيه لكي تُزكِّي نفسك استعدادا للقاء الله عز وجل، فلا تنتهيَ من هذه الحياة الدنيا إلا وقد أصبحت نفسُك مطمئنةً صالحة بأن تُعرض على الله عز وجل، فيرضى عنها ويَجزيها الجزاء الأوفى في دار النعيم.

يشجُب الله عز وجل في كتابه العزيز أهل النار الكافرين الذين نسُوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون، ففي سورة الأعراف قول الله عز وجل ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾.[3] نسوا الله فأنساهم أنفسهم. وفي قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[4]،

(1) سورة الانفطار، الآيات 1-5.

(2) سورة الشمس، الآيات 7-10.

(3) سورة الأعراف، الآيتان 49-50.

(4) سورة البقرة، الآية 129.

سفِهَ نفسه: استخف بها ولم يقم لها وزنا، كالذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1].

إن العاملين للإسلام وعلماء المسلمين كثيرا ما يكتفون بفقه نظري بالدين، فيقرؤون كتاب الله عز وجل ويشرحون ويعلِّقون، ولكن تبقى مسألة تزكية النفس غائبة، وتغيب عنهم مسألة الكيف؟ يغيب عنهم فقه النفس وعلم السلوك وعلم تزكية النفس، ويزهدون في ذلك لأسباب، لا مجال للخوض فيها الآن.

كيف أُصبح ذاكراً لله عز وجل لا أنساه لحظة، وأنا مدعوٌّ لخوض غمارات الجهاد للتعامل مع عالم صخَّاب؟ ما العمل؟ فإن الذي يتعرض لموعود الله بالخلافة على منهاج النبوة، لا بد له بعد معرفة نفسه ومصيرها، وما ينبغي أن يفعله ليزكيها، لا بد أن يعرف خصائص هذا العالم الذي يريد أن يعمل فيه، وما يتحكم فيه من قوى، وما يسوده من مشاكل، وما يحكمه من أفكار. لا بد من مخالطةٍ للعالم ومسايرةٍ لمشاكله، ومعايشةٍ لمشاكل الناس المسلمين منهم وغير المسلمين. فإذا اكتفينا بعلم نظريٍّ للعالم مقتضبٍ ملخّصٍ، ولم يكن معنا أدوات علمية لفهم ما يجري في العالم، من علوم السياسة وعلوم الاجتماع وعلوم الاقتصاد، والإحصاء وكل ما يتصل بهذه العلوم من فروع، لا يمكن لنا معرفة العالم الذي نريد أن نخوضه لكي نقيم دين الله، فينتج عن ذلك ارتداد إلى الدروشة أو إلى تكفير الناس أو العنف على الناس.

إن من الدُّعاة المنتسبين للدعوة، ونحن نحترم كل من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، من يقول إن الحلَّ هو الخروج عن المجتمع، وهذا هروب

(1) سورة الجاثية، الآية 23.

من ساحة الجهاد، ومنهم من يرى أن لا دواء لأمة المسلمين إلا السيف، بهدم هذه المؤسسات جميعها، وقتل وسفك الدماء. ومن علماء المسلمين من يتخصص في جزئية من جزئيات الفقه، لكنه عاجز عن فهم عالم تحكمه أفكار هوغائب عنها، جاهل لها.

لا بد لنا إخوتي من معرفةِ الشروط الشرعية ليكون عملنا صالحا يقبله الله عز وجل، ومعرفةِ شروط الجدوى ليكون عملنا فعلا مؤثرا في الواقع يُغيره. لأن الله عز وجل ما وعد بالخلافة في الأرض النَّاكِصين عن الواقع، بل وعد العاملين الذين يعملون الصالحات في مثل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1]. ما وعد الله سبحانه وتعالى بالاستخلاف والتمكين في الأرض القاعدين الهاربين مما وضعه الله عز وجل من نواميس تضبط هذا الكون الواسع، وما وضع من قوانين تحكم المجتمعات البشرية. يجمع هذه القوانينَ قولُ الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[2]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[3].

ليكون فعلنا صالحا ومؤثرا لا بد لنا من معرفة نفوسنا فردا فردا. لا بد لكل فرد منَّا أن يعرف نفسه، هل هو ماضٍ في التقرب إلى الله عز وجل، أم أنه يخبِط

(1) سورة النور، الآية 53.

(2) سورة البقرة، الآية 249.

(3) سورة الحج، الآية 38.

على غير هدى؟ لا بد لنا من معرفة نفسنا الجماعية من جذورها التاريخية، عبر تطور الأحداث في زمن الفتنة، ثم لا بد لنا أن نعرف تاريخ الشعوب وتاريخ العالم الذي نعيشه وتقلباتِه المفاجئةَ في الوقت الحاضر. ففي آخر القرن العشرين من تاريخ النصارى وفي مستهل القرن الخامس عشر، قرن الخلافة الثانية على منهاج النبوة إن شاء الله تعالى، ظهرت تقلبات مفاجئة مذهلة، انتهت الاشتراكية وانتهت فكرتها واعترف أهلها بخيبتها، وانتهت المنافسات بين كتلتي الغرب والشرق، فينبغي للمسلمين أن يحسُبوا لكل متجدد في كون الله عز وجل حسابَه.

وختاما فإن المخلصين لدين الله عز وجل والذين يريدون أن ينتصر دين الله عز وجل كثير والحمد لله، لكن من يبحثون عن الكيف وما العمل، وما الحيلة، وما التدرُّج المطلوب، هؤلاء قليل. والأعداء الممسكون بزمام الأمر يكيدون ويتنكرون ويستهزئون ويُثبِّطون العزائم ويرمونكم، معشرَ المسلمين، بالعجز عن تسيير دَفَّة الاقتصاد وعن مسايرة ركب المدنية والحضارة.

في أحاديثنا المقبلة عن العدل والإحسان إن شاء الله، لا بد أن نتعرض بالتفصيل لمعرفة النفس ولمعرفة العالم، ثم لا بد أن نتعرض لما هو العمل وكيف العمل، لإقامة دين الله عز وجل، فيتحقق لنا وعده عز وجل بالتمكين في الأرض، ووعده لا يُخلَف متى قُمْنا نحن ووفَّينا بالشرط، ويتحقّق لنا موعود رسول الله ﷺ بالخلافة الثانية على منهاج النبوة.



المجلس الثالث

ليلة الخميس 16 ربيع الثاني سنة 1410 الموافق لـ 16 نونبر 1989

أيها الإخوة الكرام، إن إرادة المؤمن وإرادة جماعة المؤمنين المتحزِّبين لله عز وجل، الذين يريدون أن يقيموا أمره في الأرض، وأن يحكم الدنيا شرعُه، إرادة تتوسط بين الوحي المنزل وبين الواقع، أي بين التعاليم الإلهية والأوامر الربانية، وبين عمل المؤمن في ذاته وعمل جماعة المؤمنين. هذه الإرادة المتجهة إلى الخير والملبِّية لأمر الله عز وجل، الراجية جزاءَه سبحانه، لا بد لها أن تستنير بخبرة العقل وبتجربته، لا بد لها أن تنظر في النفس وفي العالم وفي العمل وشروطه.

في هذه الجلسة الثالثة من أحاديثنا عن العدل والإحسان، ليلة الخميس سادس عشر من ربيع الثاني سنة عشر وأربعمائة وألف، نتحدث إن شاء الله عن مرحلة خطيرة من مراحل تاريخ المسلمين، مرحلة انتقاض الأمر وتحوُّله من الخلافة على منهاج النبوة إلى الملك العاض. لا بد لنا من هذه الوقفة لنتدبر طويلا وعميقا، إذا أردنا لمستقبل الإسلام أن يكون صورة للخلافة الراشدة الأولى. وقد بُشرنا في الحديث النبوي العظيم بالخلافة الثانية بعد مراحل الملك العاض والملك الجبري. يروي الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك، وهذا الحديث صححه الذهبي، عن سيدنا أبي أمامة

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتُنقضنَّ عُرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تمسك الناس بالتي تليها، وأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة**»[1]، في رواية: «**لتُنتَقَضَنَّ**».

في هذا الحديث العظيم يخبرنا رسول الله ﷺ أن هذا التحول من الخلافة على منهاج النبوة إلى الملك العاض هو نقض لشيء كان مُبْرَماً ووَهَن، لشيء كان قويّا وضعُف. تقول العرب: العُرْوة هي مِقبَض الدَّلْو أوالكُوز، والعروة هي مدخل الزِّر في الثقب، وهي مشد الرِّحال والأحمال، ويقول الأزهري: عُرى الناس سادتهم الذين يعتصم بهم الضُّعفاء ويعيشون بعُرْفهم، والعُرْوة هو الأسد. وفي كل هذه المعاني ما يُوحي بالقوة، وانتقاضُ عرى الإسلام اضْمِحْلال قوته.

إذا لم نفْقَهْ معنى هذا الحديث ومغزاه وما وراءه من وصف دقيق للحال التي تحولت إليها الحكومة في الإسلام، فإننا لن نستطيع أن نعيد إبرام ما انْتُقِض. وإن من الناس من يقرأ مثل هذا الحديث فلا يُعيره ما يستحق من الاهتمام، ومنهم من يقف وقفة المتزَهِّد المتعفِّف المتورِّع في دينه، يقول: ذلك أمر مضى وانتهى، ولا شأن لنا به.

إن انتقاض أولى عرى الإسلام ليس حدثا مضى وانقضى، بل هو رَجَّة قوية في تاريخنا لايزال المسلمون يعيشون على أصدائها، خاصة الشيعة الذين زُلْزِلوا زلزالا شديدا شكَّل فَهْمَهم للدين وحركتهم في التاريخ، ولم ينسوا أبدا هذه المصيبة التي أصابت المسلمين حين انْبرى الصحابة يتقاتلون.

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي، (22160).

يجعل الشيعة من هذه الحدث بؤرةَ اهتمامهم ومرجعَ فهمهم، والمعيارَ الذي به يُعيِّرون ويقيسون التاريخ الإسلامي بين ضلال وحق. الضلال عندهم هو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، والمُلك الأموي، والمُلك العباسي، وما تلا ذلك، والحق عندهم آل البيت وحق آل البيت الضائع. غَلا بعضهم في الأمر فتكلموا في الصحابة رضي الله عنهم بما لا يليق بذلك الجيل المُنور الفريد، جرَّتْهم إلى ذلك الغضبة العاطفية لِما حدث يوم انتقضت أولى عرى الإسلام. ومن أهل السُّنة، بل أكثرهم، يتورَّعون عن الحديث في الأمر حتى يقول قائلهم: تلك دماء صان الله سيوفنا عنها فلماذا لا نحفظ منها ألسنتنا!

انتقضت عرى الإسلام عروة عروة كما أخبر رسول الله ﷺ، وكان انتقاض عروة الحكم وانتقاله من الشَّد الذي كان عليه زمان النبوة والخلافة الراشدة إلى انحلال، انتقاضا في العَقد الشرعي الذي عليه ينبني الحكم في الإسلام، بين الحاكمين والمحكومين: الشورى ثم البيعة. والملك العاضّ، وسماه رسول الله ﷺ أيضا عَضُوضا، وهو وصف دقيق لإكراهٍ يقع من الحاكم على المحكوم. أما الرباط الذي كان في زمان النبوة وفي زمان الخلافة الراشدة، ويكون في الخلافة الثانية إن شاء الله، فبيعةٌ شرعيةٌ لا ألعوبةٌ سياسية وتَمْويهٌ إعلامي. يقول النبي ﷺ في حديث طويل عند الإمام مسلم رحمه الله رواه التابعي عبد الرحمن بن عبد ربه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال فيما قال فيه: «**إذا بايع أحدكم إماما وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع**»[1]، وكان العرب إذا اتفقوا على بيع يُصفِّقون بالأيدي. وفي الخبر أن عمر رضي الله عنه قال: ألهانا الصَّفْق في الأسواق، حسرةً لَمَّا لم يحضرْ مجلسا لرسول الله ﷺ.

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول، (1844).

كانت البيعة في زمان النبي ﷺ والخلفاء الراشدين اتفاقا بين اثنين أو بين فئتين بشروط معلومة، والبيعة الشرعية تكون بإخلاص كامل وصدق بين الطرفين. فلما كان الملك العاض استحالت البيعة إكراها بدأ بقيام الفئة الباغية مع معاوية رضي الله عنه، وحاربوا إمام المسلمين الشرعي، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكانت حروبٌ دامية فظيعة هي غُصَّة في قلوبنا جميعا لا تزال، لكنها من قضاء الله ولا رادَّ لقضاء الله سبحانه.

لما قتل الإمام علي كرم الله وجهه تولى بعده الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما، فرأى أن الحالة التي كان المسلمون يعيشونها تُنذر بصراع طويل بين عصبيات مختلفة، فتنازل الإمام رضي الله عنه حقنا للدماء، وما حروب صِفِّين والجمل ببعيد. تنازل هذا الرجل من عظماء الأمة حقْنـًا لدماء المسلمين وكان جدُّه ﷺ أخبر بذلك حين قال: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[1]. فئة باغية انتصرت بالسيف فبقيت البيعة تحت ظل السيوف منذئذٍ، وكلُّ ملكٍ عاض وجبريٍّ بعدُ إنما يرضع من ذلك النبع الفِتْنَوي، ويغرف من حوض الفتنة الكدِر ذاك، ولنا عودة في قابلٍ إلى مفهوم الفتنة ومفهوم الجاهلية.

فئة باغية كانت مع معاوية رضي الله عنه، ولمعاوية ولكل الصحابة رضي الله عنهم في قلوبنا كل إجلال وتقدير، لكن الحديث في هذا الموضوع يفرضه واجب التفقُّه في ديننا، وضرورة تصفُّح التاريخ الماضي لنخطط لمستقبل الخلافة الثانية إن شاء الله.

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي: «**إن ابني هذا لسيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»، (7109).

في حديث مشهور رواه مسلم والترمذي وغيره وروى البخاري بعضه، يقول فيه الحبيب ﷺ لعمّار، وكانوا في بناء المسجد يحملون اللَّبِن لبنة لبنة، وكان عمار يحمل لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فأخذ رسول الله ﷺ ينفُض عنه التراب ويقول: «**ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار**»[1]، هذه رواية البخاري. وعند مسلم: «**بُؤْسَ ابن سمية تقتلك فئة باغية**»[2]، وفي رواية أخرى عند مسلم: «**وَيْسَ ابن سمية أو يا ويس ابن سمية**». وقد قتل رضي الله عنه في صِفِّين وهو يقاتل مع الإمام علي ضد الفئة الباغية، وهذه عقيدة الأئمة والمحدثين والسلف الصالح من أهل السنة جميعا، إلا بعض الفقهاء. كان معاوية رضي الله عنه يقود فئة باغية، خطأ اجتهادٍ، يقوله الناس ونقوله تعفُّفا، ونسأل الله أن يكفينا الشرور، ولا نظن بالصحابة إلا خيرا، امتثالا لأمر رسول الله ﷺ: «**دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُدٍ ذهبا ما بلغتم أعمالهم**»[3] هذا حديث عند الإمام أحمد رحمه الله رواه عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

كان مع معاوية رضي الله عنه خليطٌ من أهل الشام من حديثي العهد بالإسلام، فئة باغية انتصرت بالسيف ظلما، ونتج عن ذلك الظلم قيام الملك العاض. نقل ابن كثير في البداية والنهاية عن سيدنا معاوية رضي الله عنه كان يقول: «أنا آخر خليفة وأول ملك». كيف يكون في الوقت نفسه خليفة وملكا؟ قال ابن تيمية: معاوية هو أفضل ملوك المسلمين، ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: السُّنة أن يقال معاوية ملك، وهو من أفضل الملوك، ما في ذلك شك، وكيف وهو قريب العهد، وقد صحب رسول الله ﷺ. لكنه مَلكٌ! والمُلك مُلك عاض!

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد، (447).

(2) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، (2915).

(3) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، (13812).

عندما انتهى عهد معاوية رضي الله عنه حدثت فاجعة أخرى هي البيعة ليزيد، وطَّدت للملك العاض وأبَّدته بين المسلمين. والملابسات التاريخية يومئذ مشتبكة ولا فائدة ترجى من الخوض طويلا فيها، لكن لِفقْهِ المسألة لا بد أن نتعلم أن ولاية العهد وهي انتقال من رجل صحابي إلى رجل آخر، من أهل السنة من يُفسِّقه وأهل الشيعة يُكفِّرونه، مرضٌ فعلَ بالمسلمين ما فعل، وإلى اليوم نحمله في عقولنا وفي عواطفنا، كل على شاكلته. الفقيه الإمام المفسر أبو بكر بن العربي المعافري تعرض في كتابه «العواصم من القواصم» للفتن التي كانت بين الصحابة رضي الله عنهم، ولفتنة انتقال الأمر من الخلافة الراشدة إلى الملك، وقال في ذلك كلاما مضطربا فتارة يسمي معاوية خليفة وتارة يسميه ملكا، ويرفض ويُضعِّف حديثا صحيحا رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود وابن حبان عن سيدنا سفينة مولى رسول الله ﷺ يقول فيه الحبيب ﷺ: **«الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملكا بعد ذلك»**[1]، في رواية **«ثم يعطي الله ملكه من يشاء»**.

وفي أوائل النهضة الإسلامية، من هذا العصر رجل من الدعاة السلفيين هو محب الدين الخطيب رحمه الله، وكانت له اليد الطولى في الدعوة، وفي الدفاع عن الإسلام في مصر، كانت له مجلة اسمها «الفتح»، كان يكتب فيها الأستاذ البنا في أوائل عهده بالدعوة. علَّق محب الدين الخطيب، وهو من علماء المسلمين المحترمين، على كتاب أبي بكر بن العربي المعافري فقال فيما قال : الخلافة والملك والإمارة اصطلاح يتكيَّف بتكيُّف التاريخ، والعبرة بسلوك الرجال. وهذا خطأ، لأن الخلافة شيءٌ مخالف مخالفةً جوهرية للملك، ولأنه

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث أبي عبد الرحمن سفينة مولى رسول الله ﷺ، (21928).

بعيد عن التقرير النبوي في الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «**تكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء ثم تكون ملكا عاضا**»[1]، هو أعلم ﷺ، فليس الأمر اصطلاحا بل هو اختلاف جوهري.

انتصرت الفئة الباغية إذن بالسيف وترتب عن ذلك أن عاش المسلمون تحت ظل السيف، يخشون على المسلمين الفرقة ومزيدا من إراقة الدماء، وفاجعة صِفِّين لا تزال حديثة العهد، وليلة الهَرِير، وما أدراك ما ليلة الهَرِير! وتنازلَ سيدنا الحسن رضي الله عنه وتصالحَ حقناً للدماء. يقول صاحبنا ابن العربي المعافري: تنازُلُ الحسن هو عقدُ بيعة لمعاوية، وهذا خطأ آخر. إنما تنازلَ الإمام حقنا لدماء المسلمين وخوفاً أن يفترق المسلمون.

في الحديث عند البخاري أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما دخل على أمِّنا حفصة رضي الله عنها، أختِه بعد مبايعة يزيد، فقال لها: «**قد كان من أمر الناس ما ترين فلم يجعل لي من الأمر شيء، فقالت**: **اِلْحَقْ**، (اخرج إلى الناس وبايع مع الناس) **فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فُرقة، فلم تدعه حتى ذهب**»[2]. خوف الفرقة وخشية تشتت أمر المسلمين جعل ذلك الجيل الطيب والأجيال من بعده من علمائنا وفقهائنا يرضخون للحاكم ويسمعون ويطيعون. ناهيك بأحاديث كثيرة يأمر فيها النبي ﷺ بالسمع والطاعة مهما كان الأمير، نرجع إليها ليكون فهمُنا أعمقَ.

الفئة الباغية كانت تحمل معها وفيها، من دون التعرض لسيدنا معاوية، من جراثيم الوباء الجاهلي والعصبية القبلية. وبعد أن مات كبار الصحابة رضي الله

---

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير، (18406).

(2) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، (4108).

عنهم وتوسعت رُقعة الإسلام لم يكن هنالك مجال إلى إعادة الأمر إلى نِصابه كما كان في عهد الخلافة الراشدة، لا سيما بعد مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وما وقع بين عليٍّ ومعاويةرضي الله عنهما. فرجع الناس إلى العصبية أمرا واقعا يحْتَجُّ به عالمنا المعاصر رحمه الله محب الدين الخطيب في تبْرير ولاية عهد اليزيد. قال: لو لم يكن ليزيد إلا مَزيَّة واحدة لكان أولى بها، ذلك أن معه جندَ الشام والقوةَ العسكرية التي لا يقوم الأمر إلا بها.

ونحن نقول إن أمر المسلمين إذا قام على الإكراه بقوة عسكرية أو غيرها لن يكون أبدا بيْعةً، ذلك الرَّبْطَ في عرى الإسلام الذي كان مبنيا على أن تعطيَ صفقةَ يدك وثمرةَ قلبك طوعـًا ومحبةً وثقةً.

كان ليزيد أخوالٌ من قُضاعة وكان لقضاعة أحلاف من اليمن، تكتلات قبَلية ذات شوْكة وقوَّة. يقول ابن خلدون في مقدمته إن الإمام الحسين أخطأ عندما خرج إلى كربلاء، قال: «وأما الشوكة فغلط، يرحمه الله، فيها لأن عصبية مضر من قريش، وعصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس، ولا يُنكرونه»[1]. أصبح الأمر عصبية والتكتُّل أصبح أمرا واقعا. ولا نزال أحبتي نعيش على الأمر الواقع إلى الآن. نسأل الله عز وجل أن يُعجل لنا بنُصرة دينه وبإقامة الخلافة على منهاج النبوة كما بشَّر بذلك الحبيب المصطفى ﷺ.

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 397، دار يعرب، الطبعة الأولى، دمشق، 2004.



المجلس الرابع

ليلة الخميس 23 ربيع الثاني سنة 1410 الموافق لـ 23 نونبر 1989

في حديثنا السابق، كنا تعرضنا للحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَتُنْقَضنَّ عُرى الإسلام عروة عروة، فكلما انْتَقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة**»[1].

إخوتي، في أحاديثنا هذه اتخذنا حديث الوعد النبوي بالخلافة الثانية على منهاج النبوة دليلا ونِبْراساً ينير طريقنا. وإنه دون تحقيق ذلك الوعد عقبات، ومن خلفنا عقبات وأحداث تاريخية لا بد أن ننظر في مرآتها الواقعية، على ضوء السنة النبوية والوعد الشريف، لكي نتبيَّن طريقَنا.

ماذا حدث للأمة؟ بعد انتقاض هذه العروة العظيمة من عرى الإسلام. ماذا حدث لنا؟ أي شيء نحن بعد هذا النقض؟

في حديثنا هذا الرابع من أحاديثنا عن العدل والإحسان، ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة عشر وأربعمائة وألف، نتعرض لمفهوم أساسي ومحوري لفهم تاريخنا الماضي والحاضر ومن ثَمَّ لفهم

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي، (22160).

مستقبلنا. يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكأن كلمتَه تفسير لحديث نقض عرى الإسلام: «إنما تُنقض عُرى الإسلام إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية». كان الأقرب للأذهان أن يكون الذين نشأوا في الإسلام دون أن يعرفوا الجاهلية أصفى نظرة، وأوضح طريقا، وأكثر استقامة من الذين عرفوا الجاهلية ثم عرفوا الإسلام. فما بال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبرنا بالعكس، وهو الذي عاش فترة الجاهلية بكل شدة، ثم عاش الإسلام بكل ارتياح، عن فهم كامل لما هو الإسلام؟

إخوتي، إن الأجيال التي تنشأ في الإسلام دون أن تعرف الجاهلية تكاد أن تتسرب إليها الجاهلية دون أن تدري، لأنها عرفت العافية ولم تعرف السَّقَم، عرفت الصحة ولم تعرف المرض. إذ يصعب على الناس تمييز الحق إذا كانوا يجهلون الباطل. فمن عاش الجاهلية وكرهها، استنار بنور الله وفرح لما جاء الإسلام، فذاك حقيق أن يعرف قدر الإسلام. ومن نشأ في الإسلام الموروث، في إسلام وطيء وسهل، لا يكاد يدرك قيمة هذا الدين فيوشك إن تسربت إليه من الجاهلية سَارِبة أن يقع في مصيدتها.

إخوتي، إن من علماء المسلمين من أطلقوا على تاريخ الإسلام بعد عهد الخلافة الراشدة وخاصة على عصرنا صفة الجاهلية، فعل ذلك الأستاذ المودودي، وتبعه سيد قطب رحمهما الله. ثم قرأ أجيالٌ من الشباب ما كتبه سيد قطب فحكموا على الأمة بالجاهلية. ولم يكن لهم بدٌّ إلا أن يكرهوا هذه الجاهلية كما تصوروها، ويكرهوا المجتمع الإسلامي بوصفه جاهليا، ولم يكن لهم مخرج إلا أن يقاطعوا المجتمع ويكفروه ويهجروه.

نريد في حديثنا هذا وما يليه إن شاء الله أن نثبت مفهوم «الفتنة»، وهو أقرب إلى النُّطق النبوي وأقرب إلى الصواب في وصف حقيقة الواقع كما هو. روى ابن أبي شيبة عن سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، صاحبِ رسول الله ﷺ، وهو الخبير بالفتن، فقد كان رضي الله عنه، كما يخبر عن نفسه، يسأل رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، حين كان الصحابة يسألونه ﷺ عن الخير، قال هذا الصحابي الجليل: «لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك وإنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق بالباطل».هذا تعريف للفتنة من فم رجل عاش الجاهلية ثم عاش الإسلام والفتنة بعد ذلك.

الفتنة في اللغة كما يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: «إدخال الذهب في النار لتعرف جودته من رداءته». وهذا التعريف يعطي للفتنة معنى وجود الإنسان على وجه الأرض. إن كان حديثنا عن الإحسان، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فمن الإحسان أن لا يغيب عنا لحظة معنى وجودنا في الأرض. خلقنا الله عز وجل لنُفتتن ونُختبر ونُبتلى ليُعلم أيُّنا أحسن عملا، كما قال في كتابه العزيز ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾[1]، سبحانه.

تطلق الفتنة بالإفراد، أو الفتن بالجمع على مجموع ما يحدثه الله عز وجل، من فعله حكمةً، أو من فعل البشر جنايةً، من رزايا وبلايا وذنوب وكفر وإثم ومصائب وظلم وسفك للدماء. بهذا المعنى تسُوق كتب الحديث باب الفتن، فعند الإمام البخاري ثمانية وعشرون بابا في كتاب الفتن، ومثلها عند الإمام مسلم رحمهما الله. ينقل المحدثون فيها ما أخبر به رسول الله ﷺ عن مستقبل

(1) سورة الملك، الآية 2.

المسلمين وما يحدث لهم من حروب وكروب ومروق عن الدين، وتحريف للدين، ومصائب في الدين.

تعريف الفتنة الأول يفيد معنىً لوجود الإنسان، فهي اختبار له مفردا وللمجتمعات الإنسانية في الدنيا، يشترك في ذلك المسلمون وغيرهم. والفتن بالجمع مجموع الرَّزايا والمصائب والحروب التي حدثت وتحدث في تاريخ الإسلام، فيما يخبرنا رسول الله ﷺ عما يؤُول إليها أمرنا بعد عهد النبوة وبعد عهد الخلافة الراشدة. ورُبَّ قائلٍ من العقلانيين والمؤرخين الذين قد فرغوا من تصنيف الإنسان في صف الدّوٍد الأرضي، وأن لا معنى لوجوده، بل جاء من عدم وسينتهي إلى عدم، رُبَّ قائل من هؤلاء يقول: الأَوْلى وأنت تبحث في تاريخ المسلمين أن تُحدثنا عن القوة الاجتماعية والبواعث النفسية والسياسية والاقتصادية، لا أن تأتينا بأخبار الغيب.

نحن أيها الإخوة حملة رسالة، والرسالة التي جاء بها رسول الله ﷺ كلٌّ لا يتجزأ، فيها التكليف وفيها التبشير وفيها الإنذار، كما فيها الإخبار بالغيب. كان فيها توجيه لحاضر المسلمين عندما كان رسول الله ﷺ يعيش بين ظهرانيهم، وفيها أيضا إخبار بمستقبل المسلمين على حقب التاريخ إخبارا كليا. وعلينا نحن أن نجتهد لننظر في التاريخ لكي نسلك المسلك الشرعي الذي كُلِّفنا به.

عن الفتنة نتحدث من خلال حديث نبوي رواه الإمام البخاري عن سيدتنا أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا على حوضي أنتظر من يَرِدُ عليّ**». رسول الله ﷺ واقف على حوضه الشريف، سقانا الله وإياكم منه، كأنما طُوِيَت الدنيا ورسول الله ﷺ واقف ينتظر! يا شقاءَ من لا يؤمن بالله ورسوله! يا شقاءَ من لا يؤمن باليوم الآخر!

يخبرنا الرسول ﷺ في وقفته هذه على حوضه محذِّرا موجِّها مربيا: «**أنا على حوضي أنتظر من يرد علي**[1]، **فيؤخذ بناس من دوني أقول أمتي فيقال: لا تدري مشوا على القَهْقَرى**[2]»[3]. في هذا المشهد العظيم رسول الله ﷺ واقف على الحوض وناس يأتون إليه ليشربوا من حوضه فَيُحال بينهم وبينه، فيستشفع رسول الله ﷺ فيهم. وفي حديث آخر «**إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول ﷺ سحقا سحقا**[4]»، يتبرأ منهم لأنهم أحدثوا بعده ﷺ ما استحقوا به ذلك الأخذَ الشديدَ يوم القيامة. يقول ابن أبي مليكة راوي الحديث عن سيدتنا أسماء الصديقية رضي الله عنها إنها كانت تقول: «**اللهم إنا نعوذ بك من أن نرجع على أعقابنا أو نفتن**». وهذا الحديث العظيم هو أول حديث في كتاب الفتن عند الإمام البخاري، وكأنه مفتاح لمعرفة ماهيَة الفتنة.

إن الفتن بِمعنيَيْن، الأحداث الشديدة الأليمة أو الأحداث الملهية من غير شدة، ذلك أن الله عز وجل يبتلي عباده بالخير والشر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[5]. الفتن تصيب الناس أفرادا وتصيب الجماعات والشعوب، تصيب القرى حسب التعبير القرآني. فهي عيْنيَّةٌ تصيب الإنسان في صحته من سقم أو صحة وعافية، أو في ماله من عَنَتٍ وفقر، أو في معاشرته للناس من حسن أو سوء أخلاق، من مسالمة للناس أو اعتداء، وهذه فتن لها علاجها. لكن الفتن العامة التي تصيب الجماعات والمجتمعات تموج كموج البحر، كما جاء عند البخاري: «باب الفتن التي تموج كموج البحر».

(1) يرد: يشرب من الحوض.

(2) القهقرى: السير إلى الخلف.

(3) صحيح البخاري، كتاب الفتن باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾، وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن، (7048).

(4) سحقا: بعدا.

(5) سورة الأنبياء، الآية 35.

روى شقيق عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه قال: **«سمعت حذيفة يقول: بينا نحن جلوس عند عمر، إذ قال: أيُّكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفِّرها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،** (أي هذه الفتن الخاصة التي تحدث للأفراد في خويصة أنفسهم) **قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر»**[1].

لم يسأل سيدنا عمر عن الفتنة الخاصة بالناس، لأنه ما من واحد من الخلق المكلَّفين من الجن أو الإنس إلا وهو في دار امتحان هل يشكر أم يكفر. إنما سأل أمير المؤمنين رضي الله عنه عن الفتنة التي تمُوج كموْج البحر. وهذا كثير في أحاديث النبي ﷺ إذ يصِف الفتنَ بقطع اللّيل المظلم، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه أن الإسلام يكون فيه خير ثم يكون فيه دخَنٌ، أي لُوثَة من الظلام.

قال حذيفة رضي الله عنه لأمير المؤمنين: **«ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابا مغلقا، قال: أيُكسر أم يفتح؟ قال: يُكسر، قال: إذا لا يغلق أبدا، قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته حديثا ليس بالأغاليط. فهِبْنا أن نسأله: مَنِ الباب؟ فأمرنا مسروقا فسأله، فقال: مَن الباب؟ قال: عمر»**[2].

لا إله إلا الله، تأملوا أيها الأحبة كيف كان الصحابة رضي الله عنهم وكيف كان الخلفاء الراشدون، عمر بن الخطاب وجلساؤه يقرؤون المستقبل استنادا إلى الوحي، إلى حديث ليس بالأغاليط، هداية من الله سبحانه وتعالى. تراث

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر، (7096).

(2) تتمة الحديث.

نبويٌّ شريف حافظوا عليه وتداوَلوه في مجالسهم، فكان لهم الضوءَ الكاشفَ لخطواتهم في المستقبل.

ونحن كذلك إن كنا نقرأ أمثال حديث الخلافة الثانية على منهاج النبوة، ثم نتجاوز هذا الإخبار النبوي دون أن نُلقي إليه بالا، ودون أن نستند إليه كما نستند إلى حديث حقٍّ، ليس بالأغاليط فلن نكون هناك. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف أن وراءه فتَنًا تموج كموج البحر، وكان يعرف أنه هو الباب. وقد سأل حذيفة لأنه كان عيْبَةَ سِرِّ رسول الله ﷺ في هذه الأمور، فلما قال حُذيفة بل يُكسر، قال عمر بن الخطاب: ذلك أحرى ألا يغلق.

هذا الكسر الذي وقع هو اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تبعته فترة من الهدوء في صدر خلافة الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم تلا ذلك اضطراباتٌ جاءت بعدها الكارثة مقتلُ الإمام عثمان رضي الله عنه، ثم قتل الإمام علي كرم الله وجهه، ثم انتقضت عروة الحكم.

أيها الإخوة إذ نضع بين أيدينا التوجيه النبويَّ، ونستحضر مفهوم الفتنة هدفنا أن لا يغيب عنا أبدا ذلك المعنى الإحسانيُّ الذي يكمُن في قلب العبد المؤمن، فنستحضرَ الله عز وجل ونذكرَه على كل أحوالنا، كما كان يفعل رسول الله ﷺ، لكي يكون تحرُّكُنا على وجه الأرض تحركا هادفا له مغزىً يحذُوه الشرع الشريف. وإننا إذ نذَكِّر بأحاديث النقض والفتن، وبما أخبر به الرسول ﷺ من تعاقب الضرّاء بعد الضرّاء على المسلمين حتى يأذن الله بالخلافة الثانية فترجع إلى العهد الأول، فإنما نفعل ذلك ليكون اهتداؤنا بالسنة خطوةً إلى الفعل الشرعي الهادف الناجح بإذن شاء الله.



المجلس الخامس

ليلة الخميس 30 ربيع الثاني سنة 1410 الموافق لـ 30 نونبر 1989

أيها الإخوة الكرام، نسأل الله جلَّت عظمته ألا تكون أحاديثنا هذه لقْلَقَة لسان، نسأله ألا تكون مكاسبُنا من هذه الأحاديث مزيدا من الأقوال بل مزيدا من الأفعال. ونسأل الله عز وجل أن يكون لمن حضر في مجلسنا هذا، ولمن شارك بالاستماع وبالمشاهدة، نصيبٌ من فضل مجالس الذكر، ومجالس العلم.

في حديثنا هذا الخامس المنعقد ليلة الخميس الثلاثين من ربيع الثاني سنة عشر وأربعمائة وألف نستمر في الحديث عن المنهاج النبوي وعن عُرى الإسلام التي انتقضت، وعن الفتنة. وقد أوصلنا الحديثُ عن الفتنة إلى كلمة الصحابي الجليل، الخبير بالفتن، سيدِنا حذيفة بن اليمان: «لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق بالباطل».

الحق، أيها المؤمنون، هو ما جاء من عند الله، الحق هو الله عز وجل، والباطل ما سواه. كل ما جاء من عند غير الله عز وجل، مما ينتحِله البشر ويخترعونه من مذاهب وفلسفات[1]، وما يرتكبونه من معاصي ومما يستدِرُّونه من لعنات ذلك هو الباطل، وجماع الباطل هو الجاهلية.

---

(1) حاور الإمام عبد السلام ياسين نظريات ومذاهب فكرية وفلسفية متعددة، انطلاقا من مرجعية الوحي، وطلبا للحكمة، ومدا للجسور وبحثا عن المشترك.

حديثنا اليوم عن الجاهلية أيها الأحباب، نبدأ من كلام الله عز وجل في سورة المائدة حيث قال لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1]، ثم يقول الله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2]. الله عز وجل يوصينا بوصية رسوله أن لا نكون من الجاهلين، لذلك ينبغي أن نعرف ما هي الجاهلية وما هو الجهل.

الجهل في اللغة، أيها الأحباب، يحمل معنيين اثنين أولهما الجهل نقيض العلم، والثاني الجهل نقيض الحلم، فإذا اجتمعت الجهالة بمعنى الغضبية والعدوانية والصراعية مع الجهل الذي هو الجهل بالله عز وجل وبما عند الله عز وجل، وبرسل الله عز وجل وبالآخرة فتلك هي الجاهلية. سِيمَا[3] الجاهلية العنف والجهل بالله عز وجل. في هذا السياق من سورة المائدة نجد رسول الله ﷺ وجها لوجه مع الجاهليين يُحزنه ما يقولون لأنهم يقولون جهلا. جاءهم بالعلم بالوحي فيردّون بما عندهم من آراء، وما سبق إليهم مما خلَّفه آباؤهم وأجدادهم فيُحزنه ﷺ ذلك، وتأتيه التسلية من الله عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[4]، لا يكذبونك ولكنهم يجحدون. ذاك عناد الجاهلية، فالجاهلية وإن عرفت الحقَّ لا تعترف به وتنكره.

(1) سورة الأنعام، الآية 34.

(2) سورة الأنعام، الآية 36.

(3) السِّيما: العلامة والهيئة.

(4) سورة الأنعام، الآية 36.

روى ابن أبي حاتم بسند أن النبي ﷺ لقي أبا جهل، كنَّاه المسلمون أبا جهل وكان يُكَنى أبا الحكم، فصافحه فجاءه رجل فقال: ألا أراك تصافح هذا الصابئ[1]، قال أبو جهل: «والله إني لأعلم أنه نبيّ الله، ولكن متى كنّا تبعـًا لبني عبد مناف؟»[2] عصبية الجاهلية الحسد والجحود. أبو جهل من بني مخزوم وبنو مخزوم بطْنٌ من قريش، والبطن الذي ينتمي إليهم رسول الله ﷺ بنو هاشم وهم من بني عبد مناف. وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[3]، يعلمون أنه نبي الله لكنهم يجحدون. وقد قال الله عز وجل عن الكفار بصفة عامة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[4]. عرفوا الحق وجحدوا به. وساق ابن اسحاق رحمه الله في سيرته: «أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليفَ بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم

(1) الصابئ من ترك وأعرض عن دين قومه، ويعني بذلك النبي ﷺ.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (4/ 1283) رقم 7239.

(3) سورة الأنعام، الآية 34.

(4) سورة النمل، الآية 14.

الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبْرحُ حتى نتعاهدَ ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ (ﷺ) فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها؛ قال الأخنس: وأنا والذي حلفتَ به كذلك. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ (ﷺ) فقال: ماذا سمعت، تَنازعْنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ، أطعموا فأطعمْنا، وحملوا فحملْنا[1]، وأعطوا فأعطيْنا، حتى إذا تجاثيْنا على الركب[2]، وكنّا كفرسَيْ رهان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه.»[3]

جحدوا رسول الله ﷺ وكفروا به وقد عرفوا أنه نبي، لكن نخوة الجاهلية وتفاخر الجاهلية منعهم من الاعتراف بالحق.

إخوتي لنعرفَ الجاهلية وخصائصها النفسية، ونعرفَ أنها مرضٌ في الأنفس وفي القلوب، ومرضٌ في الفكر والسلوك والأخلاق، نرجع إلى كتاب الله عز وجل فنقرأ قول الله عز وجل في سياق حديث عن غزوة أحد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ

(1) أعطوا الظهر ليركبه من لا ظهر له، أي من لا دابة له، إعارة أو عطية، فمن شأن العرب أن يتكارموا سليقة وطبعا، وأن يفتخروا للسمعة.

(2) كانواعندما تشتد الحرب والمبارزة بين اثنين يتقاتلان حتى لا تبقى فيهما قوة فيجثوان على الركب ويتقاتلان جالسَين، ويعني بذلك حتى بلغوا الجَهْد في الكرم.

(3) سيرة ابن إسحاق، ص 226، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 2004.

مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾(1)، هذا مرضٌ في النفس وفي القلب، مرضٌ في العقيدة وفي العقل.

أصاب المسلمين في غزوة أُحدٍ قرْح وغمّ، انهزموا وشُجَّ رسول الله ﷺ وكُسرت رَباعيته وهُشِّم المِغْفر على رأسه الشريف، وأذاع الكفار بأن محمدا قتل. كل هذه حروب وغموم من شأن اجتماعها وتكرارها وتلاحقها أن تزيغ بقلوب الناس عن الصواب، لكن الله عز وجل أنزل على المؤمنين السكينة والنوم سِنةً وأمَنَة، في الوقت الذي يخاف فيه الناس ويصيبهم الهلع والرعب، والمنافقون **﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾**(2). شارك بعض المنافقين في أحد فلما انهزم المسلمون لأمر أراده الله عز وجل تمحيصا، هكذا جاء في القرآن **﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾**(3)، برز المنافقون يتكلمون، كما جاء في الحديث عن سيدنا الزبير، أن المسلمين غَشِيهم النعاس فما منهم رجلٌ إلا وذقنه في صدره، فسمع سيدنا الزبير رجلا اسمه معتِب بن قشير يقول: **﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾**(4)، وفي رواية أن الذي قالها هو رأس النفاق عبد الله بن أبي، قيل له قُتل الخزرج قومُه، فقال: هل لنا من الأمر من شيء، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل، متوعّداً النبي ﷺ.

(1) سورة آل عمران، الآيتان 153-154.

(2) سورة آل عمران، الآية 154.

(3) سورة آل عمران، الآية 141.

(4) سورة آل عمران، الآية 154.

رغم الهزائم والهموم المتلاحقة، نزل على المؤمنين من الله عز وجل سكينة وطمأنينة، لثقتهم به عز وجل ويقينهم بأن اللهَ ناصرُهم، بينما المنافقون، وهم دخيلة الجاهلية ودخيلة الكفر بين أظهر المسلمين، احتجوا وبلغ منهم الهلع أن كثيرا منهم هربوا، وكذلك كثير من المسلمين، ومنهم من كبار الصحابة من فرَّ فأنزل الله عليهم العفو.

ظَنُّ الجاهلية هي الخصلة الأولى من خصال الجاهلية. وهي أمرٌ قلبيٌّ نفسيٌّ وصِفة لمن ليس له ثقة بالله عز وجل ولا بوعد الله ووعد رسوله. يقول الله عز وجل في سورة الفتح شارحا ظنَّ الجاهلية: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[1]، أي خاسرين. من شأن الجاهليِّ أن لا يثق بالله عز وجل لأنه لا عقيدة له ولا يقين.

الصفة الثانية من صفات الجاهلية هي حكم الجاهلية، يقول الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[2]. يأتي حكم الجاهلية هنا مقابل الحكم بما أنزل الله. ويُفترض فيمن يحكم بما أنزل الله أن لا يحكم بالهوى، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[3]. وهذا معنىً آخر من معاني الفتنة، تقول: فتَنَه عن الشيء إذا صدَّه عنه وشغله.

(1) سورة الفتح، الآية 12.

(2) سورة المائدة، الآيتان 51-52.

(3) سورة المائدة، الآية 51.

أيها الإخوة، إن العروة الوثْقى في حياة المؤمن وفي حياة جماعة المؤمنين مفصومة مقطوعة عند الجاهليين، يقول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[1]. إن الذي بين العباد وربهم أن يؤمنوا به ويثقوا به، وظن الجاهلية يُنافي الثقة ويُنافي الإيمان، وأن يحكموا بما أنزل الله، فإن لم يفعلوا فقد نقضوا هذه العروة الوثقى التي تصلهم بالله عز وجل.

الصفة الثالثة من صفات الجاهلية هي تبرُّج الجاهلية. يقول الله عز وجل مخاطباً أمَّهات المؤمنين: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[2]. إن معاشرة الرجل للمرأة من أعظم وأفخم الوشائج الإيمانية حُرمةً في الإسلام، فإذا تبرَّجت المرأة وزاغ الرجل وانْحلَّت الأسرة فقد انتقضت عُروة وثيقة من عُرى الإسلام. يقول الله عز وجل واصفا ما يكون بين الزوجين في الإسلام من وطيد الرِّباط: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3]. إن الميثاق الذي بين الرجل والمرأة في الإسلام عهد وثيق وميثاق غليظ، له من الله عز وجل أكبر الحُرَم. قال المفسرون في تفسير هذا الميثاق الغليظ هو عقد النكاح. والحديث النبوي يفسر كلام الله عز وجل، ففيما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ

(1) سورة البقرة، الآية 255.

(2) سورة الأحزاب، الآيات 30–32.

(3) سورة النساء، الآيتان 19–20.

قال فيما قال في حجة الوداع: «**استوصوا بالنساء خيرا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[1]. هُن أمانة، والذي جمع بين الزوجين كلمة الله، إذا انتقضت هذه العروة فقد انتقضت من الإسلام عرى قوية.

إخوتي، في الأيام الأخيرة قامت في فرنسا معركةٌ حامية في شأن قَبول المؤمنات المتحجبات في المدارس، وأفتى مجلس الدولة في الأمر وتكلمت فيه الأحزاب السياسية ولا يزال العراك طويلا. مُجمل فلسفة الغرب، فيما يظهر، أن الحجاب هو رمز لعدوان الرجل على المرأة ونقصٌ من حقها. هم لا يؤمنون بالوحي، ولا يؤمنون بأن الله عز وجل كما خاطب الرجال وكلفهم بتكاليف، خاطب المرأة وأمرها أن تتحجب وألا تتبرج تبرُّج الجاهلية. لكنهم يخوضون ويخفون في الحقيقة حقدَهم على الإسلام، وكراهيتَهم لعمالنا في بلادهم، رد الله غربتهم وفتح للمسلمين الأرزاق المباركة ليرجعوا إلى بلادهم آمنين، فإنما طردَهم عن بلادهم الفقرُ والعوَزُ والحاجة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها الإخوة، الصفة الرابعة من صفات الجاهلية، ولم يجئ في القرآن عن الجاهلية إلا هؤلاء الأربع فهن صفات جامعة لمعاني الجاهلية، هي الصفة التي تصف مجتمع الجاهليين الذي لا تجمعه وشيجة[2] المحبة والرحمة والقربى التي بين المؤمنين، ووشيجة التوحيد، ووحدة العقيدة. يقول الله عز وجل في سورة الفتح: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا**

(1) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، 1218.

(2) وَشِجَتِ العُرُوق والأغصان إذا اشتبكت، يقال وَشَّجَ الله بينهم: خَلَطَ وأَلَّفَ.

وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1]. السياق يحدثنا عن صلح الحديبية، وقد وقع للمسلمين من الغُموم والكروب والهموم في صلح الحديبية مثل ما وقع لهم في أحد، على خلافٍ بين الموقفين. ففي أُحدٍ كانت الحرب وكان القتل وكانت الهزيمة، وفي الحديبية اضطرب المسلمون لمَّا حدث ما لم يكن يتوقَّعونه.

باختصار، لما جاء رسول الله ﷺ في ألْفٍ من الصحابة، تختلف الروايات، ليحجوا البيت معتمرين في آخر ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، صدَّهم المشركون ومنعوهم. وساق النبي ﷺ الهدي وساق الصحابة، لكن المشركين صدُّوهم، فكانت المفاوضات وأرسلوا سهيلَ بن عمرٍو إلى رسول الله ﷺ لعقد اتفاق. وجلس المشرك ودعا النبي ﷺ بالكاتب الإمام عليٍّ كرم الله وجهه، فأملى النبي ﷺ على الكاتب فقال: **اكتب بسم الله الرحمن الرحيم،** فقال الكافر: والله لا أعرف ما الرحمن، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، قال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، **فقال رسول الله** ﷺ: **اكتب باسمك اللهم، ثم أملى رسول الله** ﷺ: **هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله،** فوقف سهيل وقال: والله لو عرفنا أنك رسول الله ما قاتلناك وما صددناك عن البيت، **فقال رسول الله: اكتب محمد بن عبد الله،** فلم يلبثوا أن اتفقوا على أنَّ من جاء من المشركين إلى رسول الله ﷺ يرده إليهم، ومن جاء من المسلمين إلى قريش لا يردُّونه. فاحْتدم النقاش، ولم يلبثوا أن جاء أبو جندل وهو ابن سهيل بن عمرو نفسه، جاء يرسُف في قيوده وقد عذَّبوه عذابا شديدا حتى ارتمى بين أظهر المسلمين، قال: أي معشر المسلمين أترُدّونني إلى المشركين وقد جئت مسلما، أما ترون ما لقيت؟ وكانت آثار التعذيب باديةً عليه، فصبَّره رسول الله ﷺ. لكن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه لم يصبر

(1) سورة الفتح، الآية 26.

فانبرى إلى رسول الله ﷺ قال: أَلَسْتَ نبيَّ الله حقا؟ **قال رسول الله ﷺ: بلى،** قال: ألسنا على الحق وأعداؤنا على الباطل. **قال رسول الله ﷺ: بلى،** قال: فَلِمَ نعطي الدَّنية في ديننا؟ (يعني لماذا نقبل بهذه الشروط المجحفة؟) ثم قال لرسول الله ﷺ: ألست كنت تخبرنا أننا سندخل البيت ونطوف به؟ **قال رسول الله ﷺ: بلى، أفأخبرتك أننا نأتيه العام؟** ذلك أن رسول الله ﷺ كان قد رأى رؤيا وبشَّر بها أصحابه: ﴿**لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**﴾[1]، فاضطرب الصحابة، وذهب عمر بن الخطاب إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهنا يتفاضل الرجال، فقال له مثلما قال لرسول الله ﷺ، فأجابه أبو بكر الصديق بمثل ما أجابه رسول الله ﷺ وقال له: **اِلْزَمْ غرْزَه، فوالله إنه على الحق!**

اضطرب المسلمون، وأنزل الله سكينته على المؤمنين وألزمهم كلمةَ التقوى. روى الطبري شيخُ المفسرين وعبد الله بن الإمام أحمد بسندهما، وروى الترمذي بسند آخر أن رسول الله ﷺ قال: «**كلمة التقوى لا إله إلا الله**»[2]. وجاء عن الإمام علي كرم الله وجهه، وعن عبد الله بن عمر وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنهم أن كلمة التقوى هي لا إله إلا الله. وجاء عن التابعين وعن المفسرين، قتادةَ وغيره، أن كلمة التقوى لا إله إلا الله، ومنهم من زاد: لا إله إلا الله والصلاة، لا إله إلا الله والجهاد.

حَمِيَّة الجاهلية هي الصفة الرابعة، ومعنى الحَمِيَّة الغضبُ بغير حق، وخروج نفس الإنسان وغضبيَّتُه عن الحد الذي يمكن إمساكها. كان العرب أصحابَ حمية، وكانت الحمية هي التي تُنهِضهم. والحمية تنشأ عن العصبية

(1) سورة الفتح، الآية 27.

(2) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الفتح، (3265).

فلا يغضبون لله ولكن للقوم، فهذا أبو جهل يأْنَف ولا يرضى أن يكون تبعا لبني عبد مناف. مقابل ذلك تكون المحبة والوَلاء بين المؤمنين وتكون الوَلاية، وهي من أقوى عرى الإيمان بل هي أوثق عرى الإيمان.

روى الطبراني رحمه الله عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله عز وجل**»[1]، يقول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن الحب في الله والبغض في الله، يخاطبك أيها المؤمن ويخاطب جميع المؤمنين، «فإنك لا تنال الوِلاية إلا بذلك، ولا تذوق طعم الإيمان إلا إذا كنت كذلك»[2]. وفي آخر سورة الفتح جاءت هذه الآيات العظيمة تصف رسول الله ﷺ وأصحابه في قول الله عز وجل: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[3].

ها أنا وضعت قدمك أيها الأخ الكريم، على أول خطوة في المنهاج النبوي، وهي أن تكون مع الصادقين وأن تحبَّ المؤمنين وأن تتراحم مع المؤمنين ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[4]. والخطوة الثانية كلمة التقوى لا إله إلا الله، ذلك لمن كان صادقا، أما من كان يكذب بيوم الدين ومن كان يدخر لآخرته أشباحا ميتة، أقوالا بلا أفعال، فلا كلام معه.

---

(1) المعجم الصغير للإمام الطبراني، باب العين، من اسمه عبد الله، (624).

(2) فيض القدير في شرح الجامع الصغير، العلامة المناوي، ج3، ص 91، الطبعة الثانية، دار المعرفة، 1972.

(3) سورة الفتح، الآية 29.

(4) سورة التوبة، الآية 120.



المجلس السادس

ليلة الخميس 7 من جمادى الأولى سنة 1410 الموافق لـ 7 دجنبر 1989

أيها الأحباب أيها المؤمنون، أيها المسلمون، أيها الناس أجمعون، كنا وقفنا عند حديث رواه الإمام البخاري رحمه الله عن سيدتنا أسماء الصديقية رضي الله عنها قال فيه الحبيب المصطفى ﷺ: «**أنا على الحوض انتظر من يرِد علي، فيؤخذ بناس من دوني، أقول: أمتي فيقال: لا تدري رجعوا على القهقرى**»[1].

يقوم رسول الله ﷺ يوم القيامة عند الحوض ينتظر من يأتيه من أمته ليَرِد، فيُصَدُّ قوم عن الحوض فيتضرع الرسول ﷺ يقول: أمتي، فيقال له: لا تدري رجعوا على القهقرى، يعني أنهم من بعدك بدَّلوا دينهم وغيَّروه ورجعوا إلى الوراء. والرجوع إلى الوراء أيها الإخوة إما رجوع من إسلام لجاهلية رجوعَ رِدَّةٍ إلى كفر، وإما رجوع من إيمان إلى إسلام الأعراب وإلى المعاصي وهو ارتداد. والتفصيل بين الرِدَّة والارتداد، أصَّلَه أحد علماء اللغة وأحد أئمة التفسير هو الراغب الأصفهاني رحمه الله وقال: الردة تكون في الكفر، والارتداد يكون في الكفر وفي غيره. وعن الردة نتحدث في مجلسنا السادس من أحاديثنا عن العدل والإحسان، ليلة الخميس السابع من جمادى الاولى من سنة عشر وأربعمائة وألف.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾، وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن، (7048).

للردة أيها الإخوة أحكامٌ في الفقه، استقرت عليها المذاهب منذ قرون، فيطَّلع عليها المتعاطف ذو الغيرة على الدين، المجاهد لنصرة الدين في هذا العصر، فيحمل سلاح الحدود، وتتلخَّص عنده الشريعة الإسلامية في إقامة الحدود. ومن ضمن الحدود حدودُ الردة.

إن حكم الردة في الإسلام لا خلاف فيه بين الفقهاء، فقد اتفق أئمة الفقه على أن المرتد يُقتل. واتفقوا على أن القرية التي ترتد تقاتل ويُسبى نساؤها وذراريها. قال أبو حنيفة رحمه الله: يُقتل المرتد فلا يُستتاب ولا يُمهل. وقال الإمام مالك رحمه الله: يستتاب ثلاثا ويمهل ثلاثا، فإن رجع وإلا قُتل. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: يستتاب ولا يمهل. وفي أحد القولين للإمام أحمد: لا يستتاب ولا يمهل، وفي قول آخر يتفق مع الإمام مالك. وقال الإمام حسن البصري رضي الله عنه: لا يستتاب ولا يقتل في الحين. والإمام الثوري رحمه الله يقول: يُستتاب أبدا، أي يرجى دائما أن يرجع، فلا نسارعُ إلى قتله.

أيها الإخوة، إن من الناس من يحمل إلى الناس وعيدَ الإسلام للمرتدِّين والخارجين عن حدود الإسلام، ويظن أنه إن قطع الأيدي وقتل من يستحق القتل وأقام الحدود، فذاك هو المطلوب وقد قام الدين. أما نحن أيها الإخوة فلا بد أن ننظر إلى أنفسنا ونحن في غمار الفتنة، وأن ننظر إلى ماضينا لنعرف كيف كانت الجاهلية، وكيف جاء الإسلام، وكيف انتقضت عُرى الدين. ما الوصف المناسب لحالنا؟ هل نحن جاهليون؟ هل نحن في مجتمع جاهلي، أم في مجتمع فتنوي؟ لا بد لنا من تدقيق هذه المفاهيم، ولا بد لنا أن ننظر إلى الردة بغير نظرة الفقيه الذي يطبق الأحكام وكأن الدين قائم.

لا بد أن ننظر إلى كتاب الله عز وجل لنعرف، وليعرف رجل الدعوة من أين تأتي الردة، وكيف يرتدّ الناس، وما هي العوامل التي تشجعهم وتحرِّضهم على الردة، لكي يعالج المرض. ثم بعد ذلك ننظر إلى دولة الإسلام في مستقبل الخلافة الثانية على منهاج النبوة بحول الله، كيف تتعامل الدولة بعد قيامها وبعد بناء المجتمع الإسلامي وإعادة تأسيسه. كيف وأين يكون السلطان مؤيِّدا وناصرا ووازعـًا مع القرآن.

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[1]. إذن فهنالك فاعلٌ، آمن الناس وأسلموا لكن بعض أهل الكتاب وهم الكفار يردون المؤمنين على أعقابهم بوسائلهم، فيرتد الناس بمخالطة الكافرين وتبني آراء الكافرين ومعايشة الكافرين. وتعلمون أيها الإخوة ما فعل الاستعمار في المجتمعات الإسلامية، فقد ترك فينا فِراخَه وبثَّ فينا أفكارَه لما عِشْنا في كنَفه ما شاء الله، فذلك الكفرُ.

يقول الله جلت عظمته في سياق إخبارنا عن غزوة أحد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ، بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا

(1) سورة آل عمران، الآيتان 99-100.

تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[1].

أيها الإخوة، الارتداد عن الدين له نازغٌ هو الشيطان. يقول الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾**[2]، وللشيطان أعوان من الإنس، وهم أهل الكتاب والذين كفروا، يردون المؤمنين عن الدين، وقد يبلغ بهم أن يقاتلوا المؤمنين ليردوهم عن دينهم، مصداقا لقوله تعالى: **﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾**[3]. فشأن رجل الدعوة أن يُعيدَ تأسيس جماعة المسلمين وأن يعيد بناءها ويتعهد نشأتها، وهو على خبرة واطلاع، بل على حِيطَة من أفعال الشياطين وأنصارهم، حتى إذا اكتمل البناءُ، يكون وازع السلطان يومئذ مدافعا وحاميا للصَّرح المَبْنيّ، وتكون حدودُ الله سبحانه وتعالى، تقام على المخالف، هي الضمانَ لسلامة البناء. وهذا موقف يخالف تماما تفكير الذي يظن أن تطبيق جانبٍ من الدين، وهو قانون العقوبات، كافٍ لتكون الأمة بخير ولتكون جماعة المسلمين قائمة بالحق كما أمرت.

أيها الإخوان، إنه من لم يتأملْ سيرة رسول الله ﷺ، ليتعلم منها كيف نشأ الدين، وكيف جاء الله عز وجل برسوله ﷺ، وكيف بدأ الوحي في بلد

(1) سورة آل عمران، الآيات 149-154.

(2) سورة محمد، الآية 26.

(3) سورة البقرة، الآية 215.

تحكمه الجاهلية، ظنُّها وحكمُها وتبرُّجُها وحميَّتُها، من لم يتأمل كيف بدأ رسول الله ﷺ دعوته، وكيف ألَّف جماعة المسلمين، كيف أنشأها، كيف رعاها حتى ترعْرَعت، وكيف أنزل حدود الله عز وجل بالتدريج حتى اكتمل البناء، لا يستطع أن يقيم دولة الإسلام، ولا يستطيع أن يتهيأ لموعود الله عز وجل بالخلافة على منهاج النبوة.

عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم» بابا عنونه: «باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه»، كان هذا المحدث العظيم فقيها وفِقْهه في عناوينه. ففي العنوان فهمٌ منه لضرورة ترك مقاتلة الخوارج لعِلَّة تأليف القلوب على الإسلام، مخافةَ النُّفور من إسلام يقطع الرؤوس والأيدي، ومن دين سفك ووحشية وعنف. وفي هذا العصر نحن محتاجون أن نُحبِّب الدين للناس لا أن نُنفِّرهم. وفَهْم الإمام البخاري فهمُ محدثٍ فقيهٍ حكيمٍ عليمٍ بأحوال المجتمع.

يأتي رحمه الله في هذا الباب بخبرٍ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه فيه: «**بينا النبي ﷺ يقسم، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني أضرب عنقه. قال رسول الله: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[1]. وفي سند آخر «**يقرؤون القرآن لا يتجاوز تراقيهم**»، وفي حديث آخر «**لا يتجاوز حناجرهم**». والحديث طويل أخبر فيه رسول الله ﷺ الإمامَ

(1) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف، وأن لا ينفر الناس عنه، (6933).

عليّـًا كرم الله وجهه أنه سيقاتل الخوارج، ووصفهم بأنهم عُبَّاد وبأنهم يقرؤون ويصلون ويصومون. وذكر الإمام مسلم الحديث مرويا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «**قال عمر: دعني يا رسول الله أقتل هذا المنافق، فقال ﷺ: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**»[1]. وعند الإمام أحمد: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**»[2].

أيها الإخوة، الرسول ﷺ يتألف الناس، ويتحاشى أن يكون للإسلام سمعةُ الفتك بالناس، لم يحدث هذا في السنة الأولى والإسلام لا يزال في مَهْده، ولا في السنة الثانية، ولا الثالثة، ولا الرابعة، ولا الخامسة، بل حدث في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وبعد الانتصار العظيم في حنين. ونقل ابن هشام في سيرته أخبارا تؤكد حرصه ﷺ على تأليف القلوب، وأن لا يكون للدين سمعةُ سفك الدماء. وفي حديث عند الإمام مسلم أن ذلك وقع مرجعَ رسول الله ﷺ من عمرته من الجعرانة.

عندما رجع رسول الله ﷺ من غزوة حنين بالغنائم الوفيرة، أعطى المؤلفةَ قلوبُهم أمْوالا جزيلة، فأعطى الأقرعَ بنَ حابس، وأعطى للمؤلفة قلوبُهم من أشراف قريش، فأعطى أبا سفيان هُنَيْدة وهي المائة من الإبل، وأعطى ابنَه معاويةَ مائةً من الإبل كذلك. كما أعطى سهيلَ بن عمرٍو، الذي كان فاوض رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، مائةً من الإبل. ثم حدث أن الأنصار رضي الله عنهم وجدوا في أنفسهم لمّا رأوا النبي ﷺ يوزِّع الأموال على الناس، واستثناهم من العطاء. فجاء «**سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما**

(1) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، (1063).

(2) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، (14819).

صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ قسمتَ في قومكَ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا امرؤٌ من قومي، وما أنا؟ قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة»، وكان بينه وبينهم هذا الحوار العظيم في تاريخ المسلمين. جمع رسول الله ﷺ الأنصار لكي يُطَيِّب قلوبَهم بلطفه وبرحمته كما وصفه الله عز وجل ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]. طيَّبَ قلوب الأعراب والمؤلفةِ قلوبُهم من حديثي العهد بالإسلام بالعطاء، وطيَّب خواطر الصحابة من الأنصار بالكلام الطيب.

«**فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه، بالذي هو له أهلٌ، ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلاّلا فهداكم الله؟ وعالَةً فأغناكم الله؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل. قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المَنُّ والفضل. قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم، أتيتنا مُكذَّبا فصدقناك، ومَخذُولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائِلا فآسيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاعَة[2] من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟ فوالذي نفس محمدٍ بيده لولا الهجرة**

(1) سورة آل عمران، الآية 159.

(2) اللعاعة: النبات الأخضر قليل البقاء.

لكنت امْرَأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم، حتى أخْضلوا لِحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قِسْما وحظّا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا».[1] هذا هو التأليف وهذا هو الجمع، وهذا هو البناء!

بعد هذا كانت الردة ومنَع الناسُ الزكاةَ عن أبي بكر رضي الله عنه عندما كان خليفة للمسلمين، فرأى أن يقاتلَهم فكانت حروب الرِّدة. ثم بعد ذلك في فترة أخرى في عهد الإمام علي كرم الله وجهه خرج زنادقة فألَّهُوه، فاستتابهم فلم يتوبوا، فأنشد قال:

إني إذا رأيت أمرا منكرا *** أوقدت ناري ودعوت قُنْبُرا

قتلهم ودعا قنبرا مولاه فألقاهم في النار، وكان بينه وبين ابن عباس رضي الله عنه خلاف في المسألة، «**قال ابن عباس: لو كنت أنا لم أحرقهم، لأن النبي ﷺ قال: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم كما قال النبي صلى الله عليه: من بدل دينه فاقتلوه**»[2].

في فترة بعد هذا، وقد أوشكت عرى الإسلام على الانتقاض، وقع القتال بين علي ومعاوية، فموقعة الجمل، وموقعة صفين، وبعد التحكيم خرج قوم تسمَّوا بالخوارج، وكانوا قُرَّاءاً عُبَّادا متنطعين متزهِّدين، كفّروا عليا وكفّروا عثمانَ وكفَّروا الجميع. لكن الإمام عليا كرم الله وجهه لم يقتلهم، لأن الظروف

(1) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (11730).

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، (3017).

المكانية والصُّروف الزمانية والحكمية كانت تقتضي حكمة أخرى. أرسل إليهم الإمام عليٌّ ابنَ عباس رضي الله عنه يخاطبهم، فرجع منهم أربعة آلاف وكانوا ثمانية آلاف. وأرسل إلى من بقي منهم أن يكونوا حيث شاؤوا، بشرط أن لا يسفكوا الدم الحرام، وأن لا يقطعوا الطريق وأن لا يظلموا أحدا، فلم يخرج إليهم إلا بعد أن نقضوا شروطه. كل ذلك من رفق الإسلام. في كتاب للإمام الغزالي رحمه الله اسمه «الاقتصاد في الاعتقاد» يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «الخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك دم مسلم واحد».



المجلس السابع

ليلة الخميس 15 جمادى الأولى سنة 1410 الموافق لـ 14 دجنبر 1989

أيها الإخوة الكرام الحاضرون، أيها المؤمنون والمؤمنات، أيها المسلمون والمسلمات. ما يفيدُ إن تجوَّلنا في رحاب التاريخ، وبحثْنا عن أصولنا لنعرف أنفسنا معرفة عميقة، إذا لم يكُنْ باعث التقرب إلى الله عز وجل يُذْكي فينا رغبة لقائه والبحث عن مرضاته، ثم السيرَ في الطريق الواضحة إليه. ما يغني أيها الأحبة بحثُنا وحديثنا في المنهاج النبوي وفي الخلافة على منهاج النبوة إن لم يبزغ في قلوبنا نور الإيمان، ولم تسطع فيها شمس الإحسان، ولم يكن الله عز وجل حاضرا في قلوبنا، ولم يكن التقرب إليه مسددا لخطواتنا.

ما هي الطريق إلى الله عز وجل؟ ما هي السنة الواضحة التي ترك الرسول ﷺ عليها الناس؟ ما هي البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك؟ ما هي الجادة التي كان يقول فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تُركتم على الواضحة ليلها كنهارها؟ وكان الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: تُركتم على الجادة منهج عليه أم الكتاب.

يقول الحبيب المصطفى ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده بإسناد حسن، ورواه أبو داود والترمذي رحمهما الله بإسناد صحيح، وبين الروايتين بعض الخلاف بزيادة أو نقصان، ورواية الإمام أحمد أكمل وأتم. يقول سيدنا العرباض بن سارية رضي الله عنه: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة**

ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب (خشوعا)، قلنا: يا رسول الله، إن هذه لَموعظةُ مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعِشْ منكم، فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة، وإنْ عبدا حبشيا، عضُّوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كالجمل الأُنُف حيثما انقيد انقاد»[1]. هكذا جاء في نسخة مطبوعة من المسند: «انقيد»، ولست أرى وجها لهذا البناء للمجهول، فصيغة انفعل هي للمطاوعة، ولا يُبنى للمجهول الفعل اللازم إلا إذا تعدى بالجار والمجرور. والصواب والله أعلم: «**حيثما قيد انقاد**».

إخوتي، وعظ رسول الله ﷺ أصحابه هذه الموعظة فتأثروا لها كثيرا رضي الله عنهم، وعهِد إليهم على إثر هذا الخشوع بهذا العهد العظيم أنِ الزَمُوا البيضاء! الطريق البيضاء، المنهاج الأبيض الواضح. وأخبرهم أنه لن يزيغ عنها إلا هالك، والهالك هو الذي خسر آخرته قبل كل شيء، وقد يكون مع خسرانِ الآخرة خسرانُ للدنيا.

عن الهلَكة والهلاك نتحدث في حديثنا هذا السابع من أحاديثنا عن العدل والإحسان ليلة الخميس خامس عشر من جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة وألف. نتحدث عن العوامل النفسية التي تُزيغ المؤمنَ الفرد والمسلم الفرد عن طريق الله عز وجل، والتي تُزيغ المسلمين عن المنهاج الصحيح الذي تركَنا عليه رسول الله ﷺ. روى الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الفتن باب «**هلاك أمتي على يد أغيلمة سفهاء**»، والبيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، لكن هذا الهالك قد يكون مدفوعا إلى الهلاك من لدُنِ سفهاءَ، هم الذين يُزيغونه عن طريق الله عز

(1) مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ، (17142).

وجل. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في مجلس بمسجد رسول الله ﷺ حضره مروان بن الحكم، ومروان وذرية مروان من أساطين الدولة التي سادها الأغيلمة، سمعت الصادق المصدوق ﷺ يقول: «**هلكة أمتي على يد غِلْمة من قريش**»، وفي رواية: «**هلاك أمتي على يدي أُغيلمة سفهاء**»، فقال مروان لعنة الله عليهم غلمةً. فقال أبو هريرة رضي الله عنه: لو شئت أن أقول بني فلان، وبني فلان، لفعلت، يقول الراوي، وهو عمرو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد يروي عن جده: فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام، فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم؟ قلنا: أنت أعلم» [1].

إخوتي، أخبر رسول الله ﷺ فيما أخبر به أنه ستُنقض عرى الإسلام عروةً عروةً، وأولها انتقاضا الحكمُ. وانتقاض الحكم وتسلط الغِلْمة كان مِحوراً للخلافات التي بَدَرت بين الصحابة رضي الله عنهم، والتي أَثَّلتْ فينا، هذه الأمةَ، خلافا مُزْمنا حول انتقال الأمر من الخلافة الراشدة إلى الملك العاض. فمن الناس من يحاول أن يتجنَّب هذا الخلاف، ومن الناس من يتصدى له، دون أن يكون عنده رغبة بمعرفة الحق ليتمسك به، ولا الباطل ليتجنبه.

لا نريد في أحاديثنا هذه الجدلَ، بل نريد معرفةَ الحق. أوصانا رسول الله ﷺ في الحديث الذي أوردناه آنفـًا أن نستمسك ونتَّبع سنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين، وأن نعَضَّ عليها بالنَّواجذ[2]، يعني بذلك الاستمساكَ والاعتصامَ الشديد بسنته ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. وإن من الناس من يكتفي بالنّص فيُخرج سنة رسول الله ﷺ إلى مجال التجريد، ويلخصها في سنن عبادية

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء**»، (7058).

(2) النواجذ : الأضراس أو بعض الأضراس.

فردية. ونحن نريد أن نعرف السنة كاملة بما فيها عبادة الفرد، ونظام المجتمع، والحكم وتسيير الاقتصاد، وحضور الأمة في العالم، ثم معرفة معنى الإنسان ورسالة المسلم في هذا الوجود.

غِلْمة أو أُغَيْلمة سفهاءُ كما روى البخاري كانوا هم هَلَكة الأمة، ويتضح لنا هلاك الأمة هذا، إن عرضنا حديثا آخر لأبي هريرة رضي الله عنه رواه ابن أبي شيبة مرفوعا يقول: قال رسول الله ﷺ: «**أعوذ بالله من إمارة الصبيان**» **قالوا: وما إمارة الصبيان؟ قال:** «**إن أطعتموهم هلكتم وإن عصيتموهم أهلكوكم**». فالهلكة في كلتا الحالتين: إن أطعتموهم فقد شاركتم فيما يفعلون من منكر فهلكتم في آخرتكم، وإن عصيتموهم وواجهتم باطلَهم بالحق أهلكوكم وأفسدوا عليكم دنياكم. ويقول ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه إنه كان يسير في الأسواق ويقول: «**اللهم لا تُدْرِكْني سنة ستِّين ولا إمارة الصبيان**»، وقد استجاب الله دعاءه فمات سنةً قبل وفاة سيدنا معاوية رضي الله عنه، وقبل تَولِّي يزيدَ ابنِه الملْكَ.

تولىَّ يزيد الملك وقد جاوز الثلاثين، فلا يصحُّ أن يقال إنه غلام. يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: المقصود بالغِلْمة أو الأُغَيْلِمة الصِّغر في الدين وفي الرأي وفي المروءة، وليس المقصود الصغرَ في السنّ، لأنه لم يتولَّ من بني مروان وبني أمية أحد وهو صبي. أما تولي الصبيان سنّاً فقد كان بعد ذلك أيام الدولة العباسية فما بعدها.

إذن بدأ حكم الصبيان فكف الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ الفساد يستشري في جسم الأمة إلى أن آل إلى ما تعرفون الآن من فساد في الحكم، في غياب الرجال الصحابة، وهذا لا بد أن نعرفه ونقف عنده. لأن الجيل الذي رباه النبي ﷺ ماتوا بآجالهم، أو قتلوا في حروب الفتح،

أو حروب الردة قبل ذلك، ومن بقي منهم أجهز عليهم الغلمان. وسنتعرض إن شاء الله لموقعة الحرة التي قَتل فيها يزيدُ، في السنة التي تلت ولايته وملكه، اثني عشر صحابيا ومن أبنائهم ثلاثمائة وستة. فترك هذا العنف السلطاني، وقبله الآجال التي اخترمت خيارَ الصحابة، بل انتقالهم إلى جوار الله عز وجل، ترك المسلمين وجماعة المسلمين بدون قيادات تقوم في وجه الباطل، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وبقيت حُثالة! وكلمة حُثالة وهي على وزن فُعالة تعني قشر الشعير، أو القمح، أو ما يُنْخل ويُغربل، الخفيفَ الذي لا وزن له. وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك عندما قال لعبد الله بن عمر أو لعبد الله بن عمرو بن العاص، شك الراوي، والحديث عند الإمام أحمد بن حنبل وبعضه في صحيح البخاري، يقول فيه الحبيب المصطفى ﷺ لعبد الله بن عمرو أو ابن عمر: «**كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس مرِجَت**[1] **عهودهم وأماناتهم وكانوا هكذا**»، **وشبك رسول الله ﷺ أصابعه، قال: فما أصنع عند ذاك يا رسول الله؟ قال: «اتق الله عز وجل وخُذْ ما تعرف ودَعْ ما تُنكر، وعليك بخاصتك وإياك وعوامّهم**»[2].

أخبر رسول الله ﷺ أنه سيذهب الأخيار وستبقى الحُثالة: غلمة يحكمون والشعب حثالة، ولا نُعمِّم فقد بقي فيهم رجال كعبد الله بن عمرو أو عبد الله بن عمر، لكنهم قليل. فسادت وارتفعت هذه الحثالة البشرية وأصبحت هي التي تسير الأمور، وسبب ذلك ما وقع في الإسلام من فتن ما زال مسلسلها مستمرا.

(1) مرجت: بمعنى اختلفت واختلطت.

(2) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (6508).

يقول أبو محمد بن حزم «خروم[1] الإسلام أربعة: مقتل سيدنا عثمان، ومقتل سيدنا الحسين، وموقعة الحرة، ومقتل ابن الزبير»[2]، ونحن نُفضل التعبيرَ النبويَّ: انتقاض العرى. وإن استعرضنا هذه الأحداث الأربعة فهمنا معنى الحُثالة وفهمنا معنى حكم الصبيان.

من سعى في مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه؟ سعى في ذلك شرذمة من الناس هم نموذج للحثالة. نقموا على ذي النورين رضي الله عنه، أن قرّب مروانَ، ومروانُ قرّب بني أمية، فوَلِي بنو مروان الحكم، كما مر بنا في حديث عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده، فلما رآهم غلمانا أحداثا قال : «عسى هؤلاء أن يكونوا منهم». وقرأنا عند بن أبي شيبة أن أبا هريرة حدد الوقت قال: «اللهم لا تُدْرِكْني سنة ستين ولا إمارة الصبيان»، وفي سنة السِّتِّين مات شيخ بني أمية سيدنا معاوية رضي الله عنه، وتولى ابنه يزيد.

قامت حثالة من الناس من مصر ومن البصرة والكوفة في العراق، فجاءوا إلى سيدنا عثمان يلومونه ويعْتِبون عليه أمورا كثيرة، وكان سيدنا عثمان مخلوقا من رحمة الله ليِّنًا، فأبى أن يعنِّفهم فسوَّفَهم، ومن جملة تسويفه إياهم أن جاءوا إليه في المدينة، في بعض فَعْلاتهم الشنيعة، فأرسلهم إلى معاوية في الشام، فتقدم إليه أحدهم يسمى صعصعة بن صلحان، فقال لمعاوية كم تكثر[3] علينا بقريش وبالخلافة؟ فأما العرب فقد كانت تأكل من قوائم سيوفها، وقريش تجار! فأجابه سيدنا معاوية: لا أُمَّ لك! أذكرك بالإسلام وتُذَكِّرني بالجاهلية! (الجاهلية والإسلام يتصارعان في نفوس هاته الحثالة وكان المظهر الجاهلي

(1) مفرده خُرْم، وهو الثقب والتمزق.

(2) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ج 1، 276، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، بيروت، 1986.

(3) تكثر علينا : تريد أن تغلبنا.

يغلب المَخْبَر الإسلامي). ثم يقول سيدنا معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صلحان: قبَّح الله من كثَّر[1] على أمير المؤمنين بكم! الأمر إذن تكاثر جاهلي مصداقا لقول الله عز وجل ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

حُثَالة سعت لمقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه، وحُثَالة قتلت سيدنا الحسين رضي الله عنه. قتلوا في كربلاء ستة وثمانين رجلا! منهم ستة عشر أو سبعة عشر من الهاشميين آل البيت، من أقارب سيدنا الحسين! مَن قتلهم؟

هنا يقف بعض المحدثين أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وأمثال القاضي أبي بكر بن العربي وكثير من أهل الحديث، يقفون إلى جانب بني أمية، وإلى جانب بني مروان يدافعون عنهم بكل ما أوتوا من قوة! ليحافظوا على النموذج الإسلامي! فنتج عن ذلك ما ورثناه من تقديس لنموذج أخبرنا رسول الله ﷺ أنه نموذجٌ لا يصلح، عندما قال: «**ثم تكون ملكا عاضّاً**»، وعندما قال: «**هَلَكة أمتي على يد غلمة من قريش**».

يقول سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد النسفية: «والحق أن رضى يزيد بقتل الحسين واستبشارَه بذلك وإهانةَ أهل بيت النبي عليه السلام مما تواتر معناه، وإن كانت تفاصيله آحادا، فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه، لعنة الله عليه وأنصاره وأعوانه»[3].

ويروي ابن عساكر رحمه الله، وهو من كبار المحدثين، أن يزيدَ أنشد في بعض ما أنشد، يفتخر بالجاهلية على الإسلام، يقول ابن عساكر إن صحَّ هذا فهو كافر:

---

(1) من استعان بكم على أمير المؤمنين.

(2) سورة سبأ، الآية 35.

(3) شرح العقائد النسفية، سعد الدين التفتازاني، ص 149، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2014.

ليت أشياخي ببدر شهدوا *** فزع الأنصار من وقع الأسل

لعبت هاشـــم بالملك بلا *** مَلَك جـاء ولا وحي نـــزل

بينما نجد في كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي، وعند ابن تيمية في منهاج السنة، وعند غيرهم من المحدثين الآخرين دفاعا مستميتا عن يزيد بوصفه الرجل المثالي الذي لا يصلح غيره لما رشحه له أبوه.

نقف وقفة مع المحدثين، أمثال الذهبي وابن عبد البر يسردون من مخازي مروان الشيء الكثير. ولسنا أيها الإخوة نستفيد من التعريض بالأشخاص وجَرْحهم مثلما نستفيد من سماع ما أوصى به رسول الله ﷺ، لأننا إن جئنا بالتاريخ من أسافل التاريخ، ومن مخلفات التاريخ، نستخلص الدروس والعبر فلن نهتدي إلى الطريق، وإنما نهتدي إن سمعنا إلى الوحي.

وقد يعجب المحللون الماديون ويقولون: هؤلاء يستمعون إلى رسول الله ﷺ، إن كانوا يؤمنون بالرسالة، وهذا وقع بعد رسول الله ﷺ. ألا يا عباد الله! إنه رسول الله! وإنه جاءه الوحي! وإنه أخبرنا بما سيقع لنَتبيَّن أين هي الواضحة، أين هي البيضاء، أين هي الجادَّة. فلن نعرف الجادَّة إن دخلنا في الخوض ندافع عن يزيد أو نلعنه.

في الحرة قتل الصحابة وأبناء الصحابة. وجاء الحجاج بن يوسف وضرب البيت الحرام بالمنجنيقات، ثم قتل عبدَ الله بن الزبير، وخبرُ مقتله عند مسلم في صحيحه: عن أبي نوفل قال: رأيت عبد الله بن الزبير على عقبة المدينة، قال: فجعلت قريش تمر عليه والناس، حتى مرَّ عليه عبد الله بن عمر، فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خُبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا،

أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنتَ، ما علمتُ، صوَّاما قوَّاما وَصولا للرحم، أما والله لأُمَّةٌ أنت أشرُّها لأمة خير. ثم نفذ عبد الله بن عمر، فبلغ الحجاجَ موقفُ عبد الله وقولُه، فأرسل إليه، فأُنزل عن جَذْعِه، فألقي في قبور اليهود. ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر، فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول: لتأتِينِّي أو لأبعثَنَّ إليك من يسحبك بقُرُونك، قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني، قال: فقال: أروني سِبْتَيَّ[1] فأخذ نعليه، ثم انطلق يَتَوذَّف[2]، حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتِني صنعت بعدُوِّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدتَ عليه دنياه، وأفسد عليكَ آخرتك، بلغني أنك تقول له : يا ابن ذات النِّطاقين، أنا والله ذاتُ النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعامَ رسول الله ﷺ، وطعامَ أبي بكر من الدَّواب، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه، أما إن رسول الله ﷺ حدَّثنا أن في ثقيفٍ كذّابا ومبيرا[3]، فأما الكذّاب[4] فرأيناه، وأما المبير فلا إِخَالُك إلا إيَّاه، قال: فقام عنها ولم يراجعها».[5]

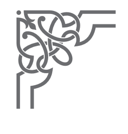
(1) نعال جلدية لا شعر عليها.

(2) يتوذف: إذا مر يقارب الخطو ويحرك منكبيه، يتبختر.

(3) المبير: المهلك.

(4) هو المختار بن عبيد الثقفي الذي حاربه سيدنا عبد الله بن الزبير وكان كذابا ادعى النبوة في آخر الأمر.

(5) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، (2545).




المجلس الثامن

ليلة الخميس 22 جمادى الأولى سنة 1410 الموافق لـ 21 دجنبر 1989

عجبا! عجبا!

عجبت أيها الإخوة، عجبت أيها المؤمنون والمؤمنات، أيها المسلمون والمسلمات، ممن تمزَّقت أوصال دينه ولا يبحث كيف يجمعها!

عجبت لمن شُتِّتَتْ بطائنُ إسلامه، ولا يبحث عن طريق ليجمعها!

عجبت لمن يدعوه الله عز وجل إلى الجنة، وتدعوه نفسه إلى الهلاك!

عجبت لمن يتباطأ عن التوبة، والله رب العزة سبحانه يبسُط يدَه بالليل ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل!

يا أخي، يا أختي، يا من يسمعني أتحدث عن العدل والإحسان وأتحدث عن الفتنة، لا يفْتِنَنَّك الكلام عن تاريخٍ مضى، وحاضرٍ مؤلم، ومستقبل هو في طي الغيب، عن نفسك ومصيرها بعد الموت!

الفتنة! الفتنة!

ماذا فعلت الفتنة أيها الإخوة بالأحباب الأولين؟

روى الإمام البخاري رحمه الله عن عالم التابعين سعيد بن المسيّب رضي الله عنه أنه قال: «وقعت الفتنة الاولى[1] فلم تُبْق من أهل بدر أَحداً[2]، ثم وقعت الفتنة الثانية، يعني الحرة، فلم يبقَ من أهل الحديبية أحدٌ، ثم وقعت الفتنة الثالثة فلم ترتفع وللناس طَبَاخٌ»[3]. الطَّباخ هو القوة والسِّمَن، أي لم يبق في الناس من أهل الخير من يُذكر. وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر: «**كيف بك يا عبد الله بن عمر إذا بقيت في حُثالة مَرِجَت عهودهم وأماناتهم!**»[4]. أين ذهب أولئك الأخيار؟ كيف استبدَّ بهم السيف البتَّار؟ هذا أيها الإخوة، موضوع حديثنا الثامن ليلة الخميس الثاني والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة وألف.

في ظل السيف، أيها الإخوة، عاش المسلمون قرونا. فما هي العقلية التي تخلفت فينا تحت ظل حكم السيف؟ وما هي الإرادة التي بقيت عند المسلمين بعد قرون حكم السيف؟ وكيف نخرج، وهذا أهم شيء، من ظل الإرهاب والقمع الذي تأَثَّل فينا تحت حكم السيف؟

إذا كان السيف يجاهد في سبيل الله، أيها الإخوة، فتحت ظلِّه العزةُ والفلاحُ. لقول رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري رحمه الله عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه : «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[5]. أما إذا كان السيف مُصْلَتا

---

(1) مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(2) الفترة بين الفتنة الأولى مقتل عثمان رضي الله عنه، والفتنة التي تبعت.

(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب، (4024).

(4) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (6508).

(5) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجنة تحت بارقة السيوف، (2818).

على رؤوس المسلمين، وكان أهله مُتسلِّطين على المسلمين، فلا يَعِشْ تحت ظل هذا السيف الجبار العاضّ إلا الخُنوع والخضوع والذِّلة والمسكنة. وسعْيُنا بحول الله، وأنتم أيها الشباب المسلم، وأيها الصَّاحون إلى دينهم في كل بقاع الأرض، لإحياء تلك العزّة بالله التي لا ترْضخ إلا للحق وتقاوم الباطل وتقاتله!

عن السيف تحدث رسول الله ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد والطبراني وأبو يعلى، عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده لينٌ، يقول فيه الحبيب المصطفى ﷺ: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم**»[1]. هل السيف الذي بعث به الرسول ﷺ سيف القهر والظلم؟ أم السيف الذي يدافع عن وحدة المسلمين وعن بيْضتهم؟ نستقرئ، أيها الإخوة، بعض أحاديث النبي ﷺ لنعرف موقع الشرع الذي ينبغي لقوة الإسلام أن تكون فيه وأن تقف عنده.

في حديث عن الإمام مسلم رحمه الله رواه عن الصحابي سيدنا عفرجة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أوصى أصحابه فيما أوصاهم قال: «**إنه ستكون هَنات وهَنات**[2]**، فمن أتى يُفرّق أمر المسلمين وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان**»[3]. بُعث رسول الله ﷺ بالسيف الشرعي ليدافع عن وحدة المسلمين وعن بيضة الإسلام، وليكون شوكة ضد الأعداء. وأوصى رسول

(1) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (5667).

(2) أشياء وأشياء.

(3) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، (1852).

الله ﷺ بوحدة المسلمين ونهاهم عن التقاتل بالسيوف وعن الحرب الداخلية بينهم في أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام مسلم عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات مِيتَةً جاهلية، ومن قاتل تحت راية عِمِّية**[1]**، يغضب لعَصَبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرَها، ولا يتحاشى من مؤمنِها، ولا يَفِي لذي عهدٍ عهدَه، فليس مني ولست منه**» [2]. يقول العلماء ليس منا بمعنى ليس على مثالنا وليس على أخلاقنا ولا على شكلنا. ويقول الحافظ ابن حجر «ينبغي ألا نؤوِّل هذا الوعيد، بل نُبقيه على إطلاقه زجْرا وتخويفا للناس لِألاَّ يجرؤوا على قتال المسلمين».

رسول الله ﷺ يأمر بالسمع والطاعة، ويأمر بالجماعة، وبالدفاع عنها بالسيف والقوة. لكن بعد انتقاض عروة الحكم رجعت الجاهلية رجعتها، فحُمل السيف بين المسلمين، حمله غِلْمة قريش أولئك الذين أهلكوا الأمة. روى مسلم في كتاب «الفتن وأشراط الساعة» باب «هلاك الأمة بعضهم ببعض»، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زَوى لي الأرض**[3]**، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسَنة عامة**[4] **وأن لا**

(1) بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان، والميم مكسورة والياء مشددة أيضا، هي التي لا يستبين ولا يعرف قصدها ولا تعرف لها غاية، وهي الشعارات ليس لها هدف ولا يعرف لها سبيل، ولا تكون على شرع الله، وفي دواخلها نيات سيئة.

(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، (1848).

(3) بمعنى جمعها لي كأنها جمعت في زاوية.

(4) المجاعة العامة.

يسلط عليهم عدُوّاً من سوى أنفسهم فيسْتَبِيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسَنَة عامة، وأن لا أسلِّط عليهم عدُوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضا، ويَسبي بعضهم بعضا»[1]. وفي رواية «**مَن بين أقطارها**». وهذا أيها الإخوة أمرٌ مِن رسول الله ﷺ للأمة أن تسمع وتطيع، وأن تتجنب سفك الدماء بين المسلمين.

في حديث ثوبان رضي الله عنه إخبار بالقضاء الإلهي وما سيحدث، شاء الناس أم كرهوا، وفي الأحاديث التي تأمر بالطاعة والكَفِّ عن سفك دماء المسلمين تكليف. وإن من يتحدث في أمرِ الإسلام، ماضيهِ ومستقبلِهِ وحاضرِه، دون أن يستحضر أنه رسول الله ﷺ يُوحى إليه، وأن ما أخبر به مما سيقع لأمته في المستقبل هو الخط الواضح والمحجة البيضاء والجادَّة المرسومة التي ينبغي أن لا تغيب عن عقولنا، من لا يستحضر هذا يَحَار في سلوك الصحابة رضي الله عنهم، الذين رَوَوْا عن الرسول ﷺ أحاديث زاجرة عن سفك دماء المسلمين. فقد روى مسلم عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**من سلَّ علينا السيف فليس منَّا**»[2]، وعند البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»[3]. فمن كانت ذهنيته لا تتسع ليتقبلَ من رسول الله ﷺ الأمرَ التكليفيَّ والأمرَ الإخباريَّ معـًا، دون أن

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (2889).

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»، (162).

(3) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»، (7070).

يكون في ذهنه تناقض بين المسألتين، يحار في تفسير تاريخ المسلمين، ماضيه وحاضره، وبالتالي يعجز عن التخطيط لمستقبل الإسلام.

روى الإمام مسلم عن سيدنا عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد الصحابي الجليل رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سألت ربي ثلاثا، فأعطاني ثِنْتَين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسَهم بينهم شديداً فمنعنيها**»[1].

ولموقف سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من الفتنة معنىً لا يدركه من لا يشم رائحة الوحي، ومن لا يعرف أن رسول الله ﷺ حينما أمرَ ونهَى، أخبر في الوقت نفسه، بأنه سيقع هلاك الأمة وستقع فتنٌ تمُوجُ كموْج البحر!

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن عمر بن سعد، وهو ابنٌ ثانٍ لسعد ابن أبي وقاص، أن عامراً أخاهُ، الذي روى الحديث السابق، أتى أباه وقتَ الفتنة يسأله لماذا لا يقوم؟ ذلك أن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لم يشارك في الفتن التي كانت بين سيدنا علي وسيدنا معاوية، رضي الله عن الجميع وغفر الله للجميع، كما لم يشارك فيها سيدنا عبد الله بن عمر، وسيدنا أسامة بن زيد، وطائفة من الصحابة. قال سعد لعامر: «أي بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا؟ لا والله حتى أُعْطَى سيفا، إن ضربت به مسلما نبَا[2] عنه، وإن ضربت به كافرا قتله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد الغني**[3]

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (2890).

(2) نبا: لم يقطع.

(3) الغنى بمعنى الاستغناء عن الناس وعن فضول الأموال.

الخفي التقي»[1]. طائفة من الصحابة اختاروا أمام هذا القدَر النَّازل، قدَرِ الفتنة، أن يكُفُّوا أيديَهم وأن يكونوا من الأخفياء الأتقياء الأغنياء.

وروى ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية أن ابن أخ سيدنا سعد بن أبي وقاص، هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص، جاءه زمان الفتنة فقال: يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحقَّ الناس بهذا الأمر، فقال سيدنا سعد رضي الله عنه: «أريد من مائة ألف سيفا واحدا إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع»**!**[2]

كان هؤلاء الأحبةُ أغنياءَ أخفياءَ أتقياءَ، من أمثال سيدنا سعد وسيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهم، أحنوا الرأس أمام الفتنة حتى تمُرَّ، فكَفُّوا عن المشاركة في حروب صفّين والجمل وما إلى ذلك، بينما آخرون من كبار الصحابة شاركوا. ويعْزو بعض الناس عدم مناصرة هؤلاء لسيدنا علي كرم الله وجهه إلى تحفُّظِهم على بيعته وعدم اعترافهم بشرعيته، وهذا خطأ، فإنما تجنبوا الفتنة، فلا أحد منهم قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لست على حق!

في حديث عند البخاري رحمه الله، رواه عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه أيام الفتنة وقْتَ أخذِ البيعة ليزيد، **دخل على أمنا حفصة أختِه ونَوْساتها تنطُف**[3]**، فقال: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يُجعلْ لي من الأمر شيء،**

---

(1) مسند الإمام أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، (1528).

(2) البداية والنهاية لابن كثير، ص 79، الجزء الثامن، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1988.

(3) ضفائرها تقطر.

فقالت: اِلحق فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة»[1].

كانوا يخافون من الفرقة، وكان لهم من تقواهم وخوفهم الله عز وجل القوة على كبْت النفس وجماحها عن طلب الرئاسة والدنيا والتفاخر. في حين كانت عِمِّية الجاهلية قد رجعت، وتمثلت في عصبة بني مروان. فمن قاتل تحت راية عمية، عصبة وحمية جاهلية!

كان لهؤلاء الأحباب من القوة ما جعلهم يسيطرون على جوامح الشهوات وكوامن الرغبات. من ذلك ما رواه الطبراني أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: **«لما كان اليوم الذي اجتمع فيه علي ومعاوية بدومة الجندل، قالت لي حفصة: إنه لا يجمل بك أن تتخلف عن صلح يصلح الله به بين أمة محمد ﷺ، أنت صهر رسول الله وابن عمر بن الخطاب، فأقبل يومئذ معاوية على بُختيٍّ**[2] **عظيم، فقال: من يطمع في هذا الأمر أو يرجوه أو يمد إليه عنقه؟ قال ابن عمر: فما حدثت نفسي بالدنيا قبل يومئذ**[3]**، فهممت أن أقول: يطمع فيه من ضربك وأباك على الإسلام حتى أدخلَكُما فيه، فذكرت الجنة ونعيمها فأعرضت عنه»**[4].

لم يكن لسيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رغبة في حضور هذا الموقف لكنه حضره بدافع من أم المؤمنين حفصة، تلك المؤمنة الراغبة في جمع شمل المسلمين، الخائفة من الفرقة. قالت لأخيها عندما سمعت بخبر قدوم معاوية:

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، (4108).

(2) البختي: جمل من جمال خراسان طوال الأعناق، ويجمع على بخت.

(3) يعني: عندما سمع هذا الاستفزاز حدث نفسه بالدنيا.

(4) المعجم الكبير للطبراني، الجزء 13، ص 151، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، القاهرة، 1994.

إنه لا يجْمُل بك أن تتخلف عن صلح عسى أن يصلح الله به أمة محمد ﷺ، وإنك صهر رسول الله ﷺ وابن عمر بن الخطاب، فخرج! حدث نفسه بالدنيا وأراد أن يقول لمعاوية: يطمع فيها من ضربك وأباك على الإسلام[1]، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: فذكرت الجنة ونعيمها فأعرضت عنه، فقد كان حضور الآخرة في قلوب هؤلاء الأحبة وازعا لهم، وقوة باطنية تمنعهم من أن يدخلوا في اشتباك مع أهل الدنيا وأهل السيف.

أهل السيف، أيها الإخوة، أهل العصبية، الظَّلَمة السفهاء! كما قال البخاري، فعلوا في الأمة بالسيف ما لم يُسمع من بعدهم مثلُه، من قطع للأيدي والرؤوس وتشويه بالجثث وقتل جماعي. الحَرَّة وما أدراك ما الحَرَّة! في الحرة قتلوا ستة وثلاث مائة من أبناء المهاجرين والأنصار، وقتلوا اثني عشر من الأنصار، وسبعة آلاف من أشراف المدينة! قتلوا عشرة آلاف من سائر الناس. واستباح جيش يزيد، بأمر منه، مدينةَ رسول الله ﷺ، مهبطَ الوحي، ثلاثة أيام! يفعلون فيها ما يشاءون! عاثوا فسادا في بيت رسول الله وفي مدينة رسول الله ﷺ! حتى إنه حبلت ألف امرأة من زناهم، واللائي لم يحملن الله أعلم بهن.

عندما كان زياد عاملا على الكوفة، في أول خُطبة له في الكوفة حَصَبه[2] الناس، وكانت عادة العرب أن يحصبوا الخطيب ما لم يحسن الخطبة، ليناقشوه أو ليشوشوا عليه. فأمر الجند فأغلقوا المسجد وقطع أيدي ثمانين رجلا، ثلاثين في بعض الروايات، في غير حد من حدود الله. ولم يكن قطع الرؤوس معهودا حتى بدأه بنو أمية. قطعوا رأس الحبيب سيدنا عمار رضي

(1) لأن معاوية وأبا سفيان من مسلمة الفتح.

(2) حذفوه بالحصى.

الله عنه، وقتلوا سيدنا الحسين عليه السلام، وطافوا برأسه بين العراق ودمشق وجاؤوا بجثته فرفستها الخيل حقدا، وحمية جاهلية!

عند الإمام البخاري عن أنس بن مالك رحمه الله أنهم جاؤوا برأس الحسين في طسْت إلى عبيد الله بن زياد، فأخذ ينكث في أسنانه أو في وجهه بقضيب يلعب به، وقال في حُسنه شيئا، قال سيدنا أنس خادم رسول الله ﷺ، وكان حاضرا: «**كان أشبههم برسول الله ﷺ**»[1]. في رواية كان يضربه بقضيبه على أنفه!

الصحابي الجليل خادم رسول الله، يرى ابن رسول الله ﷺ يُفعل برأسه هكذا![2] هذه الأشياء تبكي!

هذه مصائب وقعت ولا يغني البكاء على ما فات!

أيها الأحباب، إنما يُغْني أن نأخذ العبرة من تاريخنا لكي نعلم من أين تدخل إلينا الجاهلية ومن أين تعود إلينا. من أين تُنْشِب فينا أظفارها حتى نتفادى أمثال هذه الفضائح في مستقبل الأيام.

أيها الإخوة، أظن أنه إن تركنا لقلوبنا الجريحة المجال، فربما تحول مجلسنا هذا إلى مَناحَة، ولا تفيد المَناحات شيئا!

---

(1) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، (3748).

(2) عندها ذرفت عينا الإمام عبد السلام ياسين، وغطى وجهه وبكى مليا، وبكى من حوله، رحمه الله رحمة واسعة.



المجلس التاسع

ليلة الخميس 29 جمادى الأولى سنة 1410 الموافق لـ 29 دجنبر 1989

يقول الله عز وجل، رب العزة، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]. توكُّلك على العزيز الرحيم شرط في إفراده بالعبودية، تركع له مع الراكعين، وتتقلب بين يديه في الساجدين.

أيها المسلم، أيها المؤمن، أيتها المسلمة، أيتها المؤمنة، أيها الناس!

مع من تقلُّبكم؟ وإلى من مُنقلبكم؟

إن تقلبتم في الدنيا مع اللاهين الغافلين العاصين، فمنقلبكم إلى دار الجزاء تُوَفَّوْن ما كنتم تعملون من شر. وإن كنتم تتقلبون في الساجدين العابدين فمُنْقلبُكم إلى رب العالمين يُحسن، ومنه الإحسان سبحانه وتعالى. يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[2].

هل تفضل أن تصحب الكاذبين النَّاكِثين لعهد الله تعالى، المُعرِضين عن ربهم، فتتنزل عليك الشياطين؟ أم تريد أن تكون مع المستقيمين الذين قال

(1) سورة الشعراء، الآيات 216-219.

(2) سورة الشعراء، الآيتان 220-221.

الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]؟

كن مع الصادقين! كوني مع الصادقين! هذه نصيحة خالصة لوجه الله رب العالمين!

نقف في حديثنا هذا التاسع عن العدل والإحسان، ليلة الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة وألف، لكي نسأل عن الشورى أين ذهبت؟ نطرح هذا السؤال في هذا الأسبوع، الذي شهِد الثورة في رومانيا بأقاليم أوروبا الشرقية، هذه الثورة التي تَوَّجت الحركة التاريخية لتقريب أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية، بقيادة زعيم روسيا، زعيم الشيوعية، فيتَنكَّر بذلك أهلُ الشيوعية للشيوعية ليَبْنُوا البيت الأوروبي. وبناء البيت الأوروبي يعني أن الرأسمالية، هذا الطاغوتَ العصريَّ الذي يهلك المستضعفين في الأرض، ستزداد قوة، وسيزداد التبادل بين المستضعفين والأغنياء المستكبرين سُوءا، وتُحْكِم الرأسمالية قبضتَها على العالم. في أثناء هذه الأحداث نطرح نحن السؤال عن الشورى أين ذهبت؟

ورُبَّ غافلٍ عن الله عز وجل معرضٍ، منكرٍ للحق، يسأل: ما بال هؤلاء، رغم هذه الأحداثٍ الضِّخام، يرجعون إلى الماضي يتحدثون عن الجاهلية والبعثة،

(1) سورة فصلت، الآيتان 29-30.

(2) سورة فصلت، الآية 32.

وعن الإسلام والفتنة؟ هذا لا حديث لنا معه، إنما نتحدث مع المسلمين ومع المؤمنين!

إخوتي المسلمين، إخوتي المؤمنين، إننا إن طفِقنا ننتقل باهتماماتنا كلما طرأ في العالم طارئ، لا يكاد يصحُّ لنا وقت ولا تكاد تصفو لحظة لنطرح السؤال الأول والأخير: من خلق هذا الإنسان؟ وما مصيره؟ ومن هنا نبدأ.

أيها الإخوة الكرام، في سياق حديثنا عن انتقاض عرى الإسلام، وفي سياق حديثنا عن السيف وحُكمه، وما فعل في تاريخ المسلمين، نتساءل عن الشورى، لأن الشورى هي ضمان تحرير المسلمين وضمان عزتهم ونصرهم. وفي حديثنا عن الشورى نعرض نموذجا ناصعا جليلا من نماذج الرجال أهل الشورى، الذين اكتملت فيهم صفات أهل الشورى، فكان عصرهم عصرَ شورى. ذلك لكي نبحث عن كيفية بناء المسلم المؤمن الذي لا يرضى بغير الله ربا، ولا يطيع غير الله عز وجل، ولا يرضى بحكم السيف.

هذا النموذج هو سيدنا سعد بن أبي وقاص، الذي أوصى إليه، مع خمسة من الرجال، أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يكون أمرُهم شورى بينهم، بعد أن طعنه العِلْجُ أبو لؤلؤة. وكان لعمر مِعيارٌ لمعرفة الرجال، كان يقول: «**المرء وغَناؤُه في الإسلام، المرء وسابقته في الإسلام، المرء وحظه من الله**». وانظروا كيف ينطبق المعيار العُمَري على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه! فقد أسلم سعد في ريعان الشباب وهو في السابعة عشرة من عمره، فهو مثال الشباب المحمدي. وكانت له سابقة، يقول عن نفسه في حديث صحيح، رواه البخاري رحمه الله: «**لقد رأيتُني وأنا ثلث**[1] **الإسلام**»[2]. وكان له غَنَاءٌ ظَهر

(1) يعني أنه ثالث الثلاثة الأُوَل الذين أسلموا مع رسول الله ﷺ.

(2) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب سعد بن أبي وقاص، (3726).

يوم أحد، يقول في حديث رواه الشيخان والترمذي: «**جمع لي النبي ﷺ أبويه يوم أحد**»[1]. وفي حديث آخر رواه الشيخان في صحيحيهما والترمذي يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: «**ما سمعت رسول الله ﷺ يُفدِّي أحدا غيرَ سعدٍ، سمعته يقول له: «ارم فداك أبي وأمي»! أظنه يوم أحد**»[2]. وهذا معنى جَمَع لي أبويه، وهذا في لغة العرب غاية الإعجاز والتكريم والتشجيع! وروى البخاري عن سعد رضي الله عنه قال: «**نَثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، فقال: ارم فداك أبي وأمي**»[3]، أي أن رسول الله ﷺ نثر بين يدي سعد ما كان معه في جُعبته من سهام، وقال له ارم الأعداء! وذلك عندما كان المسلمون في ضِيق وفي هزيمة، وقد شُجَّ رسول الله ﷺ، وكُسرت رَباعيتُه، وشُقَّت شفتُه السفلى، ودخلت حلْقة المِغفر في وجنته الشريفة، وسقط في حفرة!

في وقت الضيق هذا ظهر غَناء سعد رضي الله عنه، لما قال له رسول الله ﷺ: «**ارم فداك أبي وأمي!**» وعند الإمام الترمذي رحمه الله قال له: «**اِرْمِ أيها الغلام الحَزَوَّر!**»[4] والحَزَوَّر الشديد، وهو ولد الأسد.

وإن الذي كسر رَباعيةَ رسول الله ﷺ أخو سعدٍ الكافرُ، عتبة بن أبي وقاص!

كانت لسعد رضي الله عنه سابقة وكان له غَناء، وظهر غَناؤه أيضا في السنة الرابعة عشرة من الهجرة، بعد وفاة رسول الله ﷺ، حيث قاد جندَ الإسلام في غزوة القادسية. وكان رسول الله ﷺ يفتخر به يقول، كما جاء في حديث

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، (4056).

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرجل فداك أبي وأمي، (6184).

(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، (4055).

(4) سنن الترمذي، أبواب الأدب، باب ما جاء في فداك أبي وأمي، (2829).

صحيح عند الترمذي: «**هذا خالي فليرني امرؤ خاله**»[1]! فسعْدٌ خالُ النبي ﷺ من الخُؤولة العليا، لأنه من بني زهرة، وأمُّ رسول الله ﷺ أيضا من بني زهرة.

كان له غناء، وكانت له سابقة، وكان له حظ من الله! فهو من العشرة المبشرين بالجنة، وأيُّ حظٍّ هذا؟! وكان مجابَ الدعوة، دعا له رسول الله ﷺ فقال: «**اللهُمَّ استجب لسعد إذا دعاك**»[2]، وهذا حديث صحيح عند الحاكم وعند الترمذي.

عندما وقعت الفتنة بعد مقتل سيدنا علي كرم الله وجهه، كان سعد آخر من بقي من أهل الشورى الستة الذين عَهِد إليهم سيدنا عمر رضي الله عنه. لذلك جاء ابنه عامر يعرض عليه ليطلب الحكم، وجاءه ابنه عمر يراوده ليطلب الملك، وكذلك ابن أخيه عتبة بن هاشم جاء يقول له: إن ها هنا مائة ألف سيف يرون أنك أحقُّ بهذا الأمر!

عند الإمام مسلم رحمه الله روى عامر بن سعد أن عمر أخاه أتى أباه راكبا، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبِله في البادية، فقد ترك أمْرَ الناس ولم يشترك في الفتنة، جاءه ابنه عمر فلما رآه قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فنزل فقال له: أَنَزلْتَ في إبِلك وغنمِك، وتركتَ الناس يتنازعون الملكَ بينهم؟ فضرب سعدٌ في صدره فقال: اسكُتْ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب التقي الغني الخفي**»[3].

في رواية الإمام أحمد العكس: الراوي هو عمر، والذي جاء إلى سعد هو عامر، ورواية مسلم أقرب للصحة، لأن عامرا كان من المُحدِّثين ومن الصالحين،

---

(1) سنن الترمذي، باب مناقب سعد بن أبي وقاص، (3752).

(2) المصدر السابق، (3751).

(3) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (2965).

بينما كان عمر فاسقا، فهو الذي قاد الجيش الذي قتل الحسينَ بن عليٍّ رضي الله عنهما.

انزوى الرجال الصالحون من الفتنة! ومنهم رجل يسمى الأَحْنفَ بن قيس، لم يكن صحابيا وإنما كان من خيار التابعين، وكان يُضرَب به المثل في الحلم والعلم والتقوى، وكان مأمونا ثقة، أسلم قومه بنو تميم بإشارته في الجاهلية، لكنه لم يَفِدْ على رسول الله ﷺ. وروى الحديثَ عن عمر وعن عثمان وعن علي، رضي الله عن الجميع. عند الإمام البخاري أن الأحنف سمع ما حدث بين علي ومعاوية فنهض لكي ينصر عليا، فلقيه الصحابي أبو بكرة فقال أين تريد يا أبا بحر؟ قال: أريد أن أنصر ابنَ عم رسول الله ﷺ، قال: لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما في النار**»، **قيل فهذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه**»[1].

بعد حادثة صفين وبعد وفاة الإمام علي كرم الله وجهه، ينضوي الأحنف بن قيس مع المسلمين تحت ظل السيف. ونجده في موقف عملي للدرس والعبرة، في بلاط معاوية رضي الله عنه، يقول له معاوية: إنني كلما ذكرت صفين شعرت بحرارة في قلبي، فيجيبه الأحنف بن قيس: إن القلوب التي كرهناكم بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناكم بها لفي أغمادها!

وحضر الأحنف بن قيس إلى بلاط معاوية الملِك لمبايعة يزيد. وكان معاوية قد أرسل إلى رؤساء القبائل وأشراف الناس لكي يبايعوا يزيد، فجاء الأحنف فسأله، بعد أن كان رحّب الوافدون جميعا بمقترح معاوية بتنصيب ابنه يزيد، ماذا تقول يا أبا بحر؟ قال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبنا، وأنت

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما**»، (7083).

يا أمير المؤمنين أعلم الناس بيزيد، في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلم أنه لله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور فيه! وإن كنت تعلم غير ذلك، فلا تُزوِّده الدنيا، وأنت صائر إلى الآخرة! كلام بديع ولطيف، وعظه ونصحه وأخبره بالأمر الواقع ولم يكذب، ثم قال في الأخير: إنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا!

ما في قلوب المسلمين من كراهية للملك العاض لا يزال في الصدور، وهذا ما قاله الأحنف، بل إن معاوية نفسَه يعلم ذلك، فإنه خطب في المدينة المنورة في أوائل عهده فقال: «أما بعد فإني وليت من أمركم ما وليت، وأنا أعلم أنكم لا تُسَرُّون بولايتي ولا تحبونها، ولكني خالستكم بسيفي مخالسة[1]، فإن وجدتموني قضيت كل حقوقكم فذاك، وإلا فاقبلوا مني بعضها»[2].

هكذا إذن وقف الصحابة والتابعون في وجه السيف.

جاء معاوية بنفسه إلى الحجاز، بالمدينة المنورة معقلِ الإسلام، لكي يأخذ البيعة لابنه يزيد، وكان فيها أربعة من أبناء الصحابة، هم سادة المسلمين ممن لم يلزموا الحياد، وهم سيدنا الحسين بن علي، وسيدنا عبد الله بن الزبير، وسيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر ورابعهم عبد الله بن عمر، فاستدعاهم معاوية وأغْلظ لهم القول وهدَّدهم فهربوا إلى مكة، فخَلا له الجوّ، وأخذ البيعة ليزيد.

وبعد ذلك لحق معاوية بمكة فاستدعى الأربعة ولاطفهم، فقال لهم كلاما في شأن يزيد، فانبرى له عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: «إنا نَعرض عليك

(1) المخالسة هي المغاررة والمراوغة.

(2) البداية والنهاية، لابن كثير، الجزء 8، ص 141، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1988.

ثلاث خصال: تصنع ما صنع رسول الله ﷺ، مات ولم يَعْهدْ لأحد، أو تصنع ما فعل أبو بكر، عهد إلى رجل من قاصية قريش، ليس من ولده ولا من بني أبيه، أو تفعل كما فعل عمر، جعل الأمر شورى بين ستة نفر ليسوا من بنيه ولا من بني أبيه»، فقال معاوية للثلاثة الآخرين: ما تقولون؟ قالوا : قوْلُنا قَوْلُه، أي أنهم على رأي واحد مع ابن الزبير. فخطبهم هذه الخطبة العجيبة التي رواها ابن الأثير، وهو المؤرخ الثقة، والمحدث الصَّدُوق، والعالم النِّحرير قال: «إني أحببت أن أتقدم إليكم[1]، إنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقالتي، فأقسم بالله، لئن رَدَّ علي أحدُكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يُبْقينَّ رجلٌ إلا على نفسه[2]». ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أَقِم على رأس كل رجل من هؤلاء رجُلين ومع كل واحد سيفٌ، فإن ذهب رجل منهم يردُّ علي كلمةً بتصديق أو تكذيبٍ فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه، حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبت أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله! فبايع الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر.[3]

هكذا انتقضت عرى الإسلام أيها الإخوة الكرام!

ورُبَّ سائلٍ منكم أو من غيركم يسأل: لماذا نكرر نفس الموضوع، ونرجع إليه ونعاود الرَّجعة إليه؟ ذلك أيها الإخوة لأننا إن لم نتعلم من مُنْحدر

(1) أي أخبركم وأنذركم وأحذركم.

(2) وهذه الكلمة من فصاحة العرب، تعني أبقوا على أنفسكم.

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء الثالث، ص 103، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1997.

الأحداث، كيف حدث ما حدث؟ وما هي المصائب السياسية والاجتماعية والنفسية وتأثيرها في نفوس المسلمين؟ ما هي البواعث؟ وما هي الزواجر؟ ما هي الظروف القاسية التي جعلت من المسلمين مَن انزوى وهرب، ومَن قبل منهم بالأمر الواقع، ومَن ندم في آخر عمره. فعند ابن عبد البر في الاستيعاب، وعند ابن سعد في الطبقات، أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال في آخر عمره: «**ما أجدني آسى على شيء من أمر الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية!**»[1].

نكرر هذا أيها الإخوة، لإننا إن لم نعلمْ ما حدث في نفوس المسلمين، وكيف نُقضت عرى الإسلام والإيمان في القلوب وفي الواقع الاجتماعي والسياسي، لا يمكننا أن نتأهل وأن نستعد لبناء الخلافة الثانية على منهاج النبوة.

أيها الإخوة، بعد كلمة سيدنا معاوية، جاءت صيغة جامعة لحكم السيف، ولحلول السيف محلَّ الشورى، في كلمة خاطب الناسَ بها عبدُ الملك بن مروان، وكان فقيها فلم يكن أسوأ بني مروان، جاء في السنة الخامسة والسبعين إلى المدينة، ثنتيْ عشر سنة بعد واقعة الحَرَّة، جاء فخطب في الناس فقال: «لن أداوي أمراض هذه الأمة بغير السيف! (الله عز وجل داواها بالشورى، ورسول الله ﷺ داواها بالشورى، وهو قال: لن أداوي هذه الأمة بغير السيف!) والله لا يأمرني أحد بعد مقامي هذا بتقوى الله إلا ضربتُ عنقه»[2].

هكذا فُعل بالشورى، فغابت الشورى عن واقع المسلمين، وأصبح الأمر موكولا إلى حدِّ السيف!

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الرابع، ص 141، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1990.

(2) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، الجزء الثالث، ص 434، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1997.

هذه نقطة البداية، لا بد أن ندور معها وأن نقلِّبها من جميع الجهات، وأن نبحثَها من جميع الزّوايا، لكي نعلم ونتعلّم كيف انتقضت عرى الإسلام.

بعد نحو ثلاثة قرون من استقرار حكم السيف نهائيا، نجد عند عالِمَيْن من علماء المسلمين وأئمتهم، وكانا قريبيِ العهد من بعضهما، هما الإمام الماوردي الشافعي، والإمام أبو يعلى الحنبلي الذي انتهى إليه المذهب الحنبلي، الصيغةَ النهائية المُقنَّنة المقبولة لحكم السيف، والتي اندمجت في الدين، فأصبح حكم السيف قانونا مقبولا شرعا. كيف وقع ذلك؟

يقول أبو يعلى في كتابه «الأحكام السلطانية» وقد كتبه بعد كتاب الماوردي الذي يحمل نفس الاسم، يقول أبو يعلى راويا عن الإمام أحمد رحمه الله، وكان على مذهبه: «من غلبهم بالسيف حتى أصبح خليفةً وسُمي أمير المؤمنين، فلا يَحِلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما، بَرّاً كان أو فاجرا!»[1]. سألوا الإمام أحمد: كيف ذلك؟ قال: «إن عبد الله بن عمر صلى بالناس في الحَرَّة [2] وقال: نحن مع من غلب!» أي رضي بالأمر الواقع!

ونجد ذلك مُقَنَّنا مضبوطا عند الإمام الماوردي[3] الذي يُعدُّ الآن مرجعاً لكل من تكلَّم في القوانين الإسلامية وفي الحكم. عقد في كتابه «الأحكام السلطانية» فصلا لما سمّاه ولاية الاستيلاء، إذ إنه يفرق بين ولاية الاستكفاء

(1) الأحكام السلطانية، لأبي يعلى ابن الفراء، ص20، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، 2000.

(2) ثورة الحرة: عندما ثار علماء وفضلاء المسلمين في المدينة على يزيد، فكان عبد الله بن عمر يصلي بهم.

(3) عاش الماوردي في حكم بني العباس، وفي الوقت الذي ظهر فيه سيف بني بويه الشيعة، وعاش أيضا فترة من عمره تحت حكم الترك السلاجقة الذين تسلطوا على الحكم بالسيف.

والاختيار، التي يُوَلي فيها أميرُ المؤمنين، المَلِكُ،[1] باختياره من يكفيه أمرَ جهة أو إقليم أو قُطر، وولاية الاضطرار والاستيلاء[2]. وإن ولايةَ وفتوى الاستيلاء هذه تقنين لحكم السيف.

لذلك أيها الإخوة، إذا لم نرجعْ إلى ما قبل انفراط عِقْد الإسلام، وحلولِ واحتلالِ الملك العاض وحكم السيف، وإذا لم نبحث عن أصول الفتنة، فسنبقى نعيش في الفتنة دائما. وهكذا تجد من يكتب في الإسلام اليوم يقول: الذين يستشارون في أمور المسلمين هم «أهل الحل والعقد»! مَنْ هُم أهل الحل والعقد؟

نعظِّم فقهاءَنا ونحترمهم، كانوا رحمهم الله سجناءَ في وقتهم للعقلية وللواقع، وكانوا تحت طائلة السيف، كما كان يحْذوهم توجيهُ رسول الله ﷺ بالأمر والطاعة حفاظا على وحدة الأمة، نعظمهم لذلك. لكن إن جئنا نقلدهم في هذا الزمان والمكان، فسنكون بئسَ التلامذة المقلدين. خيرٌ من ذلك أن نكون تلامذةً لرسول الله، فنأخذ عنه ﷺ.

من هم أهل الحل والعقد؟

في كتب الفقه المتأخرة، وكلها متأخرة عن وقت انفراط عِقد الإسلام وعُروته الوثقى عروةِ الحكم، أهل الحَلّ والعقد هم أهل السيف، رؤساء القبائل الذين تُسمع كلمتهم ويُتبعون، أهل الشوْكة كما يسميهم ابن تيمية[3]،

(1) الماوردي يسميه «خليفة»، بخلاف ابن تيمية الذي يسميهم مرة ملوكا ومرة خلفاء.

(2) الأحكام السلطانية، الماوردي، ص 44، دار ابن قتيبة، الكويت، 1989.

(3) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، الجزء الأول، ص 527، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، 1986.

وقد كان صريحا رحمه الله، وهم الذين يستشارون. ولكن هل يستشارون تحت السيف كما «استشير» عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين ابن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهم؟ أم أحرارا كما كان سيدنا علي وسيدنا عثمان وسيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدنا سعد بن أبي وقاص وسيدنا طلحة وسيدنا الزبير، الستة الذين عهِد إليهم سيدنا عمر، رضي الله عنهم لكي ينظروا في أمر المسلمين بعد موته؟

فإذن إخوتي، رجوعُنا إلى ما قبل الفتنة، وإلى ما كان أثناء الفتنة، وإلى ما تخلف عن الفتنة من أحداث هي المفاتيح لكي نتعلمَ دينَنا استعدادا لمستقبل الخلافة على منهاج النبوة إن شاء الله تعالى.



المجلس العاشر

ليلة الأحد 19 صفر الخير سنة 1411 الموافق لـ 9 شتنبر 1990

أيها الأحبة، هذا التسجيل يصلكم من وراء أسوار الإقامة الجبرية [1]، ومن خلال الحراسة المشدَّدة التي نزلت علينا في هذا البلد الأمين منذ ثمانية شهور، فأسأل الله عز وجل أن يُلهمني الصواب حتى يكون في كلمتي هذه المركَّزةِ جدا ما فيه فائدة لنا جميعا.

وأريد أن أتقدم لإخواني الإسلاميين المسجونين بأحرِّ سلام، لا أقصد الستة من جماعة العدل والإحسان فقط، لكن أوجِّه تحياتي لكل من أُوذِي في الله وأُودِع في غياهب السجن، من العشرات المحكومين بالسجن المؤبد والإعدام، والذين عُذِّبوا وأوذوا في الله في هذا المغرب الأمين، وإلى إخواني في بقاع الأرض في بلاد الإسلام. أسأل الله عز وجل أن يبلغهم سلامي!

وأريد أن أحُثَّ الشباب المجاهدين في سبيل الله، في هذا البلد وفي غير هذا البلد، أن لا يتراجعوا، وأن يكون اتِّكالهم على الله عز وجل اتكالا كاملا.

لا رجوع، لا رجوع، لا رجوع!

اعتمادا على الله عز وجل وعلى نصرته وتأييده!

---

(1) كان الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله يعقد هذه المجالس في بيته، حتى فُرضت عليه الإقامة الجبرية التي دامت عشر سنوات، بداية من 30 دجنبر 1989، فمُنع الناس من زيارته. لكن لم يُثْنه ذلك عن الدعوة إلى الله، فانقطع إلى العبادة والتبتُّل، وكانت هذه المرحلة حافلة أيضا بالكتابة والتأليف.

إن المُخلَّفين الجبناءَ في كل زمان يلتمسون الأعذار، ليتهرَّبوا من واجب القيام بالقسط والدفاع عن الحق. يقول الله عز وجل في شأن طائفة منهم كانوا على عهد رسول الله ﷺ من المنافقين: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾[1]. هؤلاء خَيَّلت لهم أوهامُهم أن السماء ستنْطبق عليهم وأن الأرض ستبتلِعُهم، وهذا شأن الجبناء دائما. يتخيَّلون أن مَن بأقطارها هاجمون عليهم ومُبيدوهم. ونحن معشر الإخوة نُؤمن بوعدِ الله ورسوله ﷺ، الذي أخبرنا في حديث ثوبان الذي رواه الإمام مسلم، أنه ﷺ سأل الله عز وجل أن لا يُهلك أمته بالسِّنين، فاستجاب دعاءه، وسأله أن لا يسلِّط على أمته عدوا لهم من غير أنفسهم يُبيدهم ويستبيحُ بيضتهم فاستجاب الله دعاءه وقال: «**يا محمدُ إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسَنة عامَّة، وأن لا أسلط عليهم عدُوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضا، ويَسبي بعضهم بعضا**»[2].

أيها الأحبة، في هذه الليلة ليلةِ الأحد التاسع عشر من شهر صفر الخير سنة إحدى عشرة وأربع مائة وألف، أستمر في أحاديثي هذه عن العدل والإحسان، وهذا هو المجلس العاشر، وكنت بدأت في المجالس التسعة الأولى الحديث عن الفترة التأسيسية في تاريخ الإسلام، تلك الفترة الحساسة التي من الضروري أن ننْكبَّ عليها لنعرف كيف انحرف الإسلام، وكيف انتقضت عُراه منذ الانقلاب الأموي.

(1) سورة الأحزاب، الآيتان 13-14.

(2) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (2889).

وكانت نيَّتي أن أستمرَّ في سلسلة هذه الأحاديث حتى أصل إلى ما يتطلبه منا الموقف الآني، ولعل الأقدار تُهيب بنا وتنادينا أن أسرِعوا فقد ضاق الزمان عن البحوث الطويلة! ولعل الله عز وجل يُيسّر لنا أن نرجع إلى بحوثنا لكي نستمر فيها ونعمق النظر. أو لعل التطويل في النظر إلى هاته الفترة الحساسة في حياة المسلمين من شأنه أن يثير بيننا جدلا، فقد سألني أحد الإخوة، وكنت ذكرت استشهاد الإمام الحسين فاستعبرت[1]، سألني هل أنت شيعي؟ وأجبت يومئذ: أليس ينْعصِر على قتل الإمام الحسين إلا قلب شيعي؟ نحن مسلمون، وما من مسلم حقيقي، يحمل الإسلام في قلبه، إلا يبكي ويتمزق قلبه على قتل الحسين وأمثال الحسين، شهداء الإسلام! ثم وقفت بعد ذلك على حديث عند الإمام أحمد رحمه الله ذكر فيه أن النبي ﷺ، نبَّأهم بأن الحسين سيقتل، فبكى ﷺ من هذا الحادث الذي كان في زمانه مستقبَلا، لأنه ينظر بنور الله ونور الوحي، ففرحت على التوفيق، وفرحت بموافقة العَبْرةِ العَبْرةَ، والحمد لله!

وبعد أن وصل هذا الشريط أو غيره من هذه الأشرطة التسعة إلى الإخوة، كتب إلي بعضهم رسالة مطولة، معها كتابٌ يفسر ما كان موجزا في الرسالة، يلومون أن ذكرت معاويةَ بن أبي سفيان فترضَّيت عليه. ويشرح الكتاب لماذا يشكُّ بعض المسلمين من الشيعة الروافض في إسلام من ترضَّى على معاوية. وأنا، إخوتي، أقرأ قول الله عز وجل في كتابه أمراً باتباع خُطى المهاجرين الأولين والأنصار ومَن تبعهم بإحسان، وصحبةُ رسول الله ﷺ لها عندي مقامٌ عظيم وحُرْمة. فأنا أترضَّى على الصحابي، وسؤالي الرضى عنه ليس تحْبيذاً لفَلْتِته وغلطته وخطيئته الكبيرة، حيث حوَّل أمر المسلمين من الحكم الراشدي الشوري إلى الملك العاض الوراثي الذي هو أصل بلائنا. أم تريدون أيها الإخوة أن أتسخَّط عليه، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ؟ ورسولُ الله ﷺ

---

(1) بكيت.

أوصانا في حديث رواه الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما «**لا تسُبّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه**»[1]. أتريدون أن أسُبَّ الصحابة أو أن أتَنَقَّص من الصحابة؟

ترضَّيتَ عن معاوية بن أبي سفيان أو لم تترضَّ عنه، أو استنكرتَ من ترضى عنه، هو في عهدة أعماله بحسناته وآثامه، وحسابُه على الله عز وجل يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء! وبقيَت في أيدينا، معاشرَ المؤمنين، هذه المصائب المنصبَّة علينا تباعا من جراء الحكم العاض والحكم الجبري، ويكون هذا موضوع حديثنا إن شاء الله، المركز جدا لضرورة الوقت والظروف، وضرورة أن أقدم إلى إخوتي من وراء الأسوار ما عندي من كلام كان مدَّخَراً ليوم تصل فيه مجالسنا إلى مداها. فأقول متكلا على الله!

حديثي هذا ستكون له مقدمةٍ الحديثُ فيها عن العالم، وهو في مخاض ما سبق مثلُه منذ أزمان وقرون. وأتحدث بعد ذلك عن الدعوة والدولة وما بينهما من علاقات، وأتحدث في المرحلة الثالثة عن الشورى والديمقراطية، والديمقراطيةُ هي حديث الساعة، وأنهي حديثي بحول الله عن المجتمع الأخوي الإسلامي الذي ينشده الإنسان في العالم. ولعل ضرورةَ الوقت وزحمةَ المواضيع لن تتيح حديثا مبرمجا منظما كما يفعل الأكاديميون. حسبي أن الموضوع شاسع طويل وعريض، وعميقةٌ أبعادُه في تاريخ المسلمين، وفي حال المسلمين وما يحدث لهم، وفي حاضر العالم.

إخوتي، صباح هذا اليوم سيجتمع العملاقان المتصرِّفان في مصير العالم، رئيسُ الولايات المتحدة ورئيسُ الاتحاد السوفييتي الآخذ في التفتُّت والانهيار، سيجتمعان هذا الصباح في هلسنكي يتدبَّران أمرهما، في مواجهة حالة ما سبق

(1) صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ : «**لو كنت متخذا خليلا**»، (3673).

مثلُها في حياة المسلمين، هي بروز القومية العربية في شخص صدام حسين. ولا أقول في نظام بعثيٍّ، لأن البعث بعثان عراقي وسوري. وقد عاش المسلمون، ولا يزالون، تحت وهْمِ الزعامة الشخصية وتحت فعلِها. يتناقش العملاقان هذا الصباح ما يفعلان بالمسلمين. صدام حسين زعيم يتزعم قطرا إسلاميا مقابل سلاطين العرب الذين استنجدوا بحلفائهم الأمريكان، فبادر للنجدة الأميركانُ والعالمُ أجمع.

إخوتي، يحدث هذا في الوقت الذي تنهار فيه الشيوعية فتتعلق بأذيال العالم الغنيّ الرأسمالي، وقد سمعت أمسِ أن في روسيا الاتحاد السوفييتي أزمة مجاعة عزَّ معها الخبز بعد أن عزَّت سائر المواد. الشيوعيون في مرحلة انتقال إلى نظام السوق واقتصاد السوق، وهم يؤدون أخطاء الاشتراكية ونظام الاشتراكية، وبيروقراطيات الاشتراكية.

فَعَلامَ سيتفق الاتحاد السوفييتي، المنهزم أيديولوجيا وحضاريا واقتصاديا، مع الأمريكيين، وهم في عِزِّ انتصارهم يحدِّثون العالم بأنهم مقبلون على عهد زاهر، وعلى نظام عالمي ما سبق مثلُه؟ فَكُّوا الحلفَ الأطلسي، وهم بصدد تركيب حلفٍ جديد عربي أمريكاني لحصار الإسلام واحتلال الأرض التي تختزن ثروة الإسلام، النفط.

وحول النفط قامت المعركة، وحول النفط اجتمع أعداء المسلمين يدا واحدة، اليهودُ في القدس والأمريكيون، وقد نزلوا بكل ثقلهم في الحجاز بلد النبوة والوحي، وسلاطينُ العرب، وحشودُ أوروبا، والعالم. بل من أفريقيا المسكينة الفقيرة المُفقَّرة دول بعثت بجنودها لكي تدْعم هجمةَ أمريكا على بلاد المسلمين!

إنه الاستعمار جاء بوجهه القديم، بعد أن ارتاح من الحرب الباردة التي عاشها العالم أكثر من أربعين سنة، وكان قوامَها الخلافُ بين روسيا وأمريكا، والرعبُ النوويّ والتهديد النوويّ. والمستضعفون في الأرض، وفي مقدمتهم المسلمون، كانوا هم وقودَ هذه الحرب الباردة، كما هم اليوم وقود هذه الحشود استعدادا لسحق الإسلام والمسلمين.

في الصف الآخر صدّام حسين والبعث العراقي ينادي العرب والمسلمين، إلى العدْل يقول: هذه إمارات تعيش في بذْخ باذخ، تبذِّر أموال المسلمين، والمسلمون يعيشون في الفقر والحاجة. كلمة حق! صدّام العراق يعلن أنه يحارب اليهود وحلفاء اليهود ومن اصطف مع اليهود ومع حلفاء اليهود. كلمة حق!

فيا أيها الإخوة تحت أية راية نقاتل؟ يا معشر الأحباب، يا معشر الإسلاميين! يا من تتمزّق قلوبهم أسىً على ما يُفعل بالإسلام، تحت أية راية نقاتل؟

إنهما رايتان عِمِّيتان، عمِّي على وزن فعِّيل، نحو: سِكِّيت، سكِّير، مِكّيث، أي كثير المُكث، والراية العِمِّية هي الراية الشديدة العمى عمى الإبصار، شديدة العماء، وهو الظلام!

تحت أية راية نقاتل؟

في حديث رواه الإمام مسلم والإمام النسائي رحمهما الله عن سيدنا جُندب ابن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قُتل تحت راية عِمِّية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية**» (1)

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، (1850).

هل نقاتل مع العصبية القومية الحاملةِ شعاراتِ الإسلام، وشعارات العدل وشعارات الجهاد؟ أم نصطفّ مع اليهود؟ فإن تورَّعنا قلنا: نحن مع القوة الغالبة الكفيلة أن تردع الخطر القوميّ، وقُلنا نحن مع سلاطين العرب لنحميَ الأراضي المقدسة من البعثِ، ذلك البعثِ الذي جهَّزَتْه بالأمس قُوى الاستكبار العالمي ليحارب الثورة الإسلامية الإيرانية، تلك الحربَ الشنيعةَ التي سُفِكت فيها دماءُ المسلمين بمئات الآلاف، ذلك البعثِ الذي حرَّق إخواننا المسلمين الأكرادَ، خمسةَ آلافٍ بالأسلحة الكيماوية في حلابيا.

مع من نصطفُّ أيها الإخوة؟

إنهما رايتان عِمِّيتان، وإن قَدَرَ الله عز وجل يطرُق الأبواب مبشِّراً بغَد الإسلام، وإن على باب مستقبل الإسلام أقفالا! منها القُفل القومي، والقفل النّفطي الإمَاريّ حليفُ حليفِ حليفِ اليهود، والحلف هنا لا ينقص من شدَّتِه ولا من شناعته تسلسلُ النِّسب.

أيها الإخوة الدعاة، ما هو واجب الدعوة في الوقت الحاضر؟

لو كان هذا استجوابا صحافيا لَلَزم أن أقول ما هو موقفي الحالي، مع هؤلاء أم مع هؤلاء. وليس يلزم الإسلاميين أن يختاروا بين الرَّمْضاء والنّار، ليس عليهم أن يتقدموا بين يدي القدر فيختاروا، فإن الله عز وجل كفيلٌ أن يسحق أعداء الإسلام أيّـًا كانوا، كيف يشاء، نسأله بجلال عزّته أن يُبطل هذه الأقفال المُغلِقة لآفاق الإسلام.

أيها الإخوة الدّعاة، الإسلام ضاع بين الدعوة والدولة، والإسلاميون اليوم هم الأمل الوحيد باعتراف الخصم والعدو، والقريب والبعيد، والشَّائن

والمادح. أصبحوا هم الأملَ الوحيد الذي تتعلق به قلوب المسلمين، فأهل الدعوة سائرون للحكم شاء من شاء، وأبى من أبى!

هذه بالأمس ثورة إيران التي زعزعت أركان العالم بقوتها، وهددت نظام الاستعمار الغاشم الذي كان وزَّع بلاد المسلمين دار الإسلام إلى أركان سطَّرها بمسطار خبراء الجغرافيا الاستعمارية. بالأمس كانت ثورة إيران مَجْداً للإسلام، ثم طرأت أخطاءُ كانت على قدْر عظمة الثورة. وتعلم المسلمون منذ عشر سنوات، ويجب أن يتعلموا من ثورة إيران، من أخطائها ومن إيجابياتها ما به يستقبلون هذا النصرَ المقبل الذي يشهده العالم. ولا بد لنصر الله عز وجل أن يتنزَّل على المسلمين، وإنه وعْدٌ منهاجي نبويّ، وعد رسول الله ﷺ الذي أخبرنا أنها ستكون نبوةٌ، ثم ملك عاض، ثم جبرية، ثم خلافةٌ على منهاج النبوة!

يجب أن يكون اعتقادنا ويقينُنا بوعد الله ورسوله ثابتـًا. لكن يجب أن نتهيأ لأن نصرَ الله لا يتنزَّل على الجبناء ولا على الأغبياء، لا يتنزل على من لا ينظرون بنور الله إلى الذات الإسلامية المقبلة على هذا المستقبل العظيم، وإلى آيات الله في الكون، كي يعلموا مواقعَ القدر، ولكي يستعدوا كما أمر الله عز وجل: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾[1].

إخوتي، منذ مائة سنة كان بين المسلمين فحلٌ من فحول الأمة، هو جمال الدين الأفغاني رحمه الله، أستاذ الأجيال من العلماء ومن الوطنيين الأحرار. وكان إلى جانبه تلميذٌ له، واحد من كبار علماء المسلمين هو محمد عبده رحمه الله. ونحن هنا نذكر التاريخ، ونمرُّ مرَّ الكرام على ما كان من أخطاء فادحة ارتكبها الرجُلان. هذا لا يعنينا، وليس المجال هنا ولا المقام لانتقاد

(1) سورة الأنفال، الآية 61.

الرجلين. كان جمال الدين الأفغاني يقول إن الحلَّ هو السياسة، وتبعه الشيخ محمد عبده رحمه الله زمانا، ثم رأى التلميذ بعد ذلك أن تهْييجَ المسلمين واتباع المنهجية الأفغانية التي تقول: «قل كلمتك وامض!» لا تأتي بأية نتيجة، فباح لشيخه وأستاذه بأن الأمر يتطلب تربية أجيال. وآل الأمر في الأخير إلى خصام بين الرجلين العظيمين، غفر الله لنا ولهما وأفسح لهما في جنَّاته. الأفغاني يريد الجمع السياسي والتكتيك السياسي، وتمليذه لا يوافقه، فكان الأفغاني يقول لعبدُه: ما أنت إلا مثبِّط!

ثم جاء بعد الرجلين دعاة عظام، أمثال حسن البنا أستاذِ الأجيال، وأبي الأعلى المودودي رحمه الله، وأبي الحسن الندوي أحسن الله إليه ونفع به؛ وكُتَّابٌ إسلاميون أمثالُ سيد قطب وعبد القادر عودة وغيرهم رحمهم الله، وما منهم إلا من أدلى بدَلْوه وأسهم بسهمه في تنوير طريق المسلمين. وهذا الذي يعيش عليه، ويتغذى منه شباب الصحوة الإسلامية هو تراث الفكر الذي خلفه لنا هؤلاء الرجال من عظماء الأمة.

لكن عندما تتأمل الطريق الذي سلكه فئات من الدعاة تجد أنهم يقدمون للناس إسلاما لا يكاد وجهه يُبين. هل هو إسلام وظيفيّ شموليّ يحلّ مشاكل المجتمع الإسلامي، في الاقتصاد والسياسة، أم مذهب فكري، أم نظام سياسي، أم أيديولوجية سابقة بأربعة عشر قرنا لآخر ما اخترعته الإنسانية؟ هل هو يمينٌ ضدَّ يسار أم يسارٌ ضد يمين؟

إسلام لا ذكر فيه لله عز وجل ولا للآخرة!

في معترك الخصام والحوار مع المذاهب والأحزاب السياسية والأنظمة الحاكمة ينسى بعض الدعاة أنفسهم، ومن نسي اللهَ أنساه اللهُ نفسَه، فلا يعدو

خطابهم مقارنةً تفضيليةً للإسلام على ما عداه. ويقدمون للناس الإسلام نُتَفًا ومُزَعًا، شريعةً فيها جانب علاجي وجانب معاملاتي، إلخ، ولا جامع بين كل هذه الأشتات في خطاب هؤلاء، لأنه لا جامعَ هنالك في القلوب وفي العقول.

أيها الإخوة الكرام، إن الدعوة إن لم تكن دعوةً إلى الله حقا، دعوةً للعباد أن يُسْلموا وجههم لله، دعوةً إلى كل فرد فرد أن يكون عبدا لله عز وجل، لن تكون إلا دعوة خِداجًا منقوصة مغشوشة. إن العبودية لله سبحانه وتعالى، والدَّلالة على هذه العبودية، وأن الإسلام الذي يتناول الإنسان من أعمال جوارحه التي هي شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت أعمال جوارحِية، أما الإيمان فمحلُّه القلب، ومنه تنبثق الأعمال الصالحة التي بها يكون المؤمن وجماعة المؤمنين مؤهَّلين لكي يحملوا أمانة القرآن وأمانة الدين.

الدين إسلام وإيمان وإحسان!

بعد استقرار الإيمان بالله عز وجل وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واليوم الآخر، واليوم الآخر! بعد استقرار كلِّ ذلك في الجَنان، يكون الإحسان تطلُّعا إلى كمال العبودية لله عز وجل، والتقرب منه ونَيْل الزُّلفى من جنابه سبحانه وتعالى. وهذا شيء غائبٌ في خطاب الدعوة ولا يُخيَّل إليَّ أن لذلك سببا إلا غيابُ ذلك في قلوب الدعاة وعقولِهم وأفكارهم.

نسأل الله عز وجل أن يُنوِّر طريقنا.

أيها الإخوة، إنَّ الدعوةَ منذ العهود الأولى، ثلاثين سنة بعد رسول الله ﷺ، انْطوَتْ تحت جناح الدولة، وعاش علماء المسلمين والدعاة الصادقون في كَمَد، تحت وطْأَة الحكم العاضّ ولا يَزالون. وإن ما ترَوْنه، أيها الإخوة، من

عقد مؤتمرات إسلامية يُنفق عليها ويشجِّعها حكامُ الجور، ما هو إلا وسيلة من هذه الأنظمة ليجمعوا حولهم بعض العلماء الصادقين، غيرَ الواعين بما يفعل بهم وبالأمة، فلا يشعرون إلا وقد أصبحوا مُمجِّدين مدَّاحين، يُحْرقون البُخور على أعتاب الحكم الجائر!

هذه حال الدعوة!

لغَدِ الإسلام نريد أن تكون الدعوة هي السيدة، والدولة تخدمها وتهيئ لها المناخَ المناسب لتربية الأجيال. أما الآن فالدعوة في كثير من بلاد المسلمين في خدمة الدولة، وهذا قلبٌ للحقائق. أنا أعتقد أن هذه المؤتمرات الإسلامية المعقودة ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال فيها خير، لكن الإسلام الأمريكي، كما سمّاه سيد قطب رحمه الله منذ أربعين سنة، وإسلام سلاطين العرب سيدعوكم غدا، أيها الدعاةُ السّائرون في ركاب الظلمة، لتُبرِّروا احتلال الحجاز لثلاثين سنة أو لخمسين، بل لمائة سنة. فالاستعمار الجديد يخطِّط اليوم لمُكْثٍ طويل في قلب بلاد المسلمين. يُقدِّر الخبراء بأن في بلاد العرب، ولا أقول بلاد المسلمين جميعا، ما يفوق خمسا وسبعين بالمائة (75٪) من مدخرات النفط في العالم، والنفط هو عصب الحياة والصناعة، بل هو حياة هذه الإنسانية جميعا.

سيفٌ! لكن السيفَ لا يعمل إلا في يدي بطل! والعرب غُثاءٌ من الغُثاء!

يقدِّر الخبراء أن النفط الموجود في بلاد العرب يمكن أن يُدير حركةَ وعجلة الاقتصاد العالمي لـمائتي سنة، أَفَنبْقى مستعمَرين مائتي سنةٍ أخرى؟

إخوتي، إن هذه الهزَّات القدرية العنيفة القوية، مثلَ الحرب لثمانية أعوام بين المسلمين الشيعة والمسلمين السُّنة تحت قيادة بعثية، كوارثُ نتعلم منها أن ما

يحمله المسلمون جميعا في قلوبهم من نصر دين الله والجهاد في سبيل الله، ينبغي أن تتوفر له شروط. لأن الله سبحانه وتعالى لم يكلِّفنا أن نحارب العالم جميعا حتى نفْنى، وإنما وضع نِسَبا ومِعيارا للمواجهة. قيل للجيل الأول في كتاب الله : ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[1]، ثم رحم الله عز وجل ذلك الجيلَ القويَّ فقال : ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[2]، فخفف من عشرة أضعاف إلى ضعفين، وإنَّ عُدة المسلمين، وإن كثُر عَددهم، مقارنةً بعُدَّة الأعداء لا تكاد تذكر.

في العشر سنوات الأخيرة أنفق العرب وحدهم ألفا ومائة مليار دولار، أربعون بالمائة (40٪) منها خصصت للسلاح. أموالٌ ذهبت لخزائن الرأسمالية الجديدة المستعِرة حقداً على العالم وعلى المستضعفين خاصة، والمستعدة لسحق المسلمين والمستضعفين في العالم، في النظام الجديد الذي يهيئه عمالقة العالم. ذهبت هذه الأموال إلى خزائنهم وكدَّس العرب أكداسا من السلاح صوَّبوها إلى صدور إخوانهم في إيران. وبالبقية الباقية من السلاح، يقول البعثيون العراقيون، على عكس البعثيين السوريين المصْطَفِّين ضدهم إلى جانب الأمريكيين، إنهم يريدون أن يحاربوا اليهود وأمريكا وكلَّ عدوٍّ للإسلام، ويستنهضون هِمَمَ المسلمين.

من هذه الهزات، أيها الإخوان، نتعلم احترام سنة الله عز وجل في الكون.

كانت ثورة إيران فلْتةً من فلتات التاريخ، لأسباب لا مجال لشرحها، أهمّها وجود دعوة منظمة (آيات الله، وحجج الإسلام)، ووجود حوْزات مستقلة

(1) سورة الأنفال، الآية 66.

(2) سورة الأنفال، الآية 67.

يدعمها الشعب بأمواله بالخمس الشرعي، كما يفهم الشيعة الخمسَ الشرعي لأهل البيت. والإسلاميون اليوم بدأوا يُعرفون في الساحة قوةً صاعدة، يخطب كل ذي تطلع إلى الحكم وُدَّهم، وأصبحت الناس تُعدِّل أشرعة سفنها نحو الرياح المُسْعِفة، رياحِ الإسلام! ومنذ شهرين كان الانتصار الإسلامي في الجزائر مثالا آخر جديداً برهن للعالم أن الشعب المسلم مستعدٌّ لكي يتبع قيادة إسلامية. ولكن إذا انخرط الإسلاميون في السياسة، (انتخابات، تنظيم مجالس، برلمان، حكم، رئاسة...) فسيشتغلون عن الدعوة. ماذا يفعل رجل الحكم، ولو كان في بدء أمره من أزكى الناس إيمانا وأشدَّهم تقوى؟ سيظل يشتغل بمصالح الناس صباح مساء، فإن استمر على ذلك شهورا وأعواما فقد نسيَ الدعوة.

يلزم الانتباه الدقيق إلى الأخطار التي تحيط بالمسلمين وهم في طريق انتصارهم واستلامهم للحكم. بعض الإسلاميين من الآن يقولون: إن التربيةَ تركناها للمساجد! نعم، المساجد هي المقرُّ الشرعي لكل خير، ولتربية المسلمين جميعا، لكن من يَعمُر هذه المساجد الآن؟ أنت الذي منَّ الله عليك بالغيرة على دينك، فجاهدت وسُجِنت وقُتِلت في سبيل الله حتى أصبحت قدوةً للمسلمين، تتفرغ للدولة وتترك المساجد لعلماء خاملين ناعسين، موظفين كانوا بالأمس عند نظام لائكي؟ إن ذلك لن يُكوِّن ذلك الجسم القويَّ الذي من شأنه أن يحمل أعباء الدعوة وأعباء الأمانة والرسالة في بلاد المسلمين وفي العالم.

وإن من الأخطار المهددة للمسلمين وللإسلاميين الدعاة، أنهم يكيلون الوعود الانتخابية كما يفعل غيرهم اسْتِباقا للحكم. إننا مضطرون لكي نساير الديمقراطية، وهي آخرَ الأمر فجوةٌ صنعها لنا الله عز وجل لكي ندخل من الباب الواسع الذي يعترف بسنة الله في الكون وهي التدرج، ويعترف بالقانون

الدولي وهو قوة معنوية يُضطر الكل للاستناد عليها واحترامها، وحقوق الإنسان والأمم المتحدة. وإنه في الأسبوع الأخير ما انفك الزعماء الأمريكيون يناشدون الأمم المتحدة لتعطيَهم مشروعية الانقضاض على العراق، فهم مضطرون ليستندوا إلى قوة معنوية هي القانون الدولي والحفاظ على التوازنات الدولية. وما التوازنات الدولية إلا نتيجةٌ لظلم قديم هو الاستعمار الذي جزَّأنا ومزَّقنا. وقد أصبح للأمم المتحدة، خصوصا في السنوات الأخيرة، وزنٌ لم يكن لها من قبل. وليست الأمم المتحدة في حقيقة الأمر إلا الدول الخمس التي تتحكم في العالم، والتي لها في مجلس الأمن حق الرفض، حق الفيتو، وإن كان فيها من الدول المستضعفة العشرات.

إذن ندخل هذه الديمقراطية المعروضة علينا بكل اطمئنان، لكن يجب أن لا نُزْجي الوعود للأمة المظلومة المحقورة الجائعة. فإن تولَّينا الحكم وتحملنا وِزْرَ قرون الحكم الفاشل، وسِني الإدارة الاستعمارية الجديدة، وحملنا هذا العِبءَ وحدنا، ثم أَعطينا لمن أَوْلَوْنا ثقتهم وعودا بأننا سنفعل وسنفعل، وسنُسوِّي المشاكل، فإننا نتعرض إلى خيبات أمل كبيرة، لا قدر الله!

إخوتي عندما نتقدم إلى الأمة، ونحن مقبلون ومرشحون للدخول في المعمعة السياسية، يجب أن نَكُفَّ عن الأساليب الغوغائية السائدة في الديمقراطية، والتي تكذب وتلفِّق وتلْتفُّ على الحقيقة وتراوغ. السياسيون لا يتورَّعون عن ذلك لأنه خبزُهم اليومي.

كانت كلمة السياسة في اللغة تعني الحكمةَ العَمليَّة التي بها يُراود الإنسان المصاعب والمشاكل، حتى تَلينَ في يده وحتى يجد لها حلاًّ لطيفا، كما أن السياسة الشرعية هي النظر في مصالح الناس، بكيفيات يقبلها الناس،

ويشاركون فيها لحل المشاكل، أما الآن فقد أصبحت كلمة سياسة غاية في حد ذاتها. وإنك أيها الداعية، عندما تدخل إلى المَعْمَعان السياسي، ولمَّا تتركزْ في قلبك معاني الإيمان وتطلُّعات الإحسان، فإنك يوما ما ستختلط عليك الوسائل بالغايات، وربما تصبح سياسيا كسائر السياسيين!

إخوتي، إن الذي نطلُبه ونسعى إليه ليس الحكمَ، ولا أن نُقبَل في سِرب التعدُّديات الديمقراطية. الذي نطلبه هو أن يُحكَمَ في الأرض جميعا بما أنزل الله، والحكمُ بالشرع يقتضي الشورى. ومن الإسلاميين وغيرِهم من اللائكيين المحاوِرين، أو المُنافسين، أو الكائدين، من يقول: كلما جئناكم أيها الإسلاميون نحدثكم عن الديمقراطية، منكم من يقول إن الديمقراطيةَ كفرٌ، ومنكم من يقبل بعض الديمقراطية دون بعضها، ومنكم من يقدم الشورى على أنها سبقت الديمقراطية! ذلك خلطٌ في المفاهيم. الذي نريده هو الشورى.

والشورى جاءت تتويجا لعمل نوع من المسلمين لهم مواصفات دقيقة، جاءت في كتاب الله عز وجل في قوله من سورة الشورى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[1]. جاءت الشورى وسط شروط إن لم تتوفر في الأفراد المُكوِّنين لجماعة المسلمين فلن تكون أبدا شورى، وإن أُطلق عليها اسم الشورى تجاوزا.

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ إيمان بالآخرة وعمل لوجه الله عز وجل الخالق، المحيي، المميت، الباعث، ربِّ الجنة والنار، الدّيان سبحانه وتعالى. ثم سائر

(1) سورة الشورى، الآيات 33-36.

الشروط، ومن أركانها الركينة العدل، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. عندما تكتمل هذه الشروط عملا وصفةً فينا، ونيةً أن نعدل عندما نصل إلى الحكم، يكون الأمر عندئذ شورى.

إخوتي، يجب أن نقدِّم للأمة مشروع عمران أخوي، ولا أستعمل كلمة حضارة، ولا كلمة ثقافة، ولا تلك الكلمات الغامضة التي جاءتنا من ذلك البَر. وكلمة «عمران» لا أضمنها المعنى الذي كان يعطيها ابن خلدون رحمه الله، يقصد بها العمران الأرضي، العمران الاقتصادي من فلاحة وصناعة وتجارة، لكنْ الحَاضُّ في كلمة «عمران» أمر من الله عز وجل بعمارة الأرض عمارة تعبدية، وعمارة المساجد. هذا العمران الأخوي الذي قدَّمه الإسلام للإنسانية في عهد البِعثة والخلافة الراشدة، نموذجا عاليا للمجتمع الأخوي.

يجب أن نقدم للأمة مشروعا للمجتمع الأخوي، قوامُه العمران الأخوي والذي يتطلب بناؤُه مدىً بعيدا وأجيالا. ولتكوين هذه الأجيال يتخصص الدعاة دون أن يذوبوا في الدولة.

إخوتي، نسأل الله عز وجل لنا ولكم الثبات وحسن الخاتمة، ونسأله عز وجل لهذه الأمة الخروج من هذه المآزق الحرجة، وأن ينزل علينا نصره إنه على ما يشاء قدير. وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



المجلس الحادي عشر

الثلاثاء 18 ذي القعدة 1417 الموافق لـ 25 مارس 1997

في هذا اليوم المبارك، يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر ذي القعدة من سنة ألف وأربعمائة وسبعة عشرة، نستأنف تسجيل مجالس العدل والإحسان التي كانت توقفت منذ حوالي نحو سبع سنوات. آخرُها كان المجلس العاشر الذي تعرضتُ فيه لمواضيع مختلفة تأثّرت بالأحداث التي كانت قائمة يوم ذاك، بعد هجوم صدام حسين على الكويت، وأثناء تلك البلْبلة التي حدثت في العالم.

واليوم وقد انتهت عاصفة الصحراء وما ترتب عن عاصفة الصحراء، والغزو الأمريكي الأوروبي لبلاد العرب، وما تلا ذلك من عقابيلَ على الشعب العراقي المُعاني، بعد كل هذا وبعد أن كنّا تعرضنا في التِّسع الجلسات الأولى للبحث عن خُروم الإسلام، وكيف انحرف الحكم الإسلامي من خلافة راشدة إلى ملك عاض، كنا نودُّ يومذاك أن نعمِّق بحثنا ونقدنا التاريخي للمسيرة الإسلامية. واليوم وبعد سبع سنوات ونيِّف من الحصار، وبعد السجون وبعد المتابعات والاضطهادات، نجد أنفسنا قد سارعت بنا الأحداث، استغفر الله العظيم، سارع بنا قضاء الله وقدره، وتوسعت جماعة العدل والإحسان بما لم يكُنْ في الحسبان.

نجد أنفسَنا نُعاني من ظلم شديد وقع على جماعتنا لا سيما في الجامعات، وأنا أفخر وأُحيِّي الطلبة لثَباتهم ولوقوفهم مع الحق، ولصبرهم وأَنَاتهم وانضباطهم. أحيّي الإخوان والأخوات الذين عانَوْا من ظلم العباد، ومن

ظلم الأجهزة القمعية التي جندت جَلاوِزة متوحّشين هجموا على الأخوات في فاس، وكسروا عظام الإخوان، وشَدَخوا الجماجم في هذه الكلية وتلك، لا سيما في جامعة الدارالبيضاء.

أفخر وأفرح، لأن هذا التناميَ في الجماعة مباركةٌ من الله سبحانه وتعالى في العددِ والكيْفِ أيضا. وقد انضم إلى جماعتنا ما شاء الله من خِيرة الشباب، أفرح بفضل الله على هذه الجماعة، أنْ ثبتتْ أمام عواصف القمع، ومحاولات مَن يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، أفرح لذلك وأفخر، وأهنّئ الطلبة، وأهنئ جماعة العدل والإحسان بما نالت عند الله عز وجل من الذي يناله الصابرون، الثابتون، المهتدون الهادون، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا كذلك.

الأحداث اليوم، في العالم وفي المغرب، غيرُ الأحداث التي سُجِّلت فيها المجالس الأولى من مجالس العدل والإحسان، فقد أصبح العالم في دوامة متسارعة تتميز بتقدم مذهلٍ للعلوم والتكنولوجيا والاختراعات، آخرها ما يمَسُّ الإنسان في صميم كيانه ووجوده، وهو ما يُسمى باسْتِنْساخ الخلائق. فتح الله عز وجل على العباد أبوابَ هذه العلوم وهذه الاختراعات والاكتشافات، ابتلاءً منه سبحانه وتعالى، فأصبحوا في مناطق الخطر، تهدد كشوفاتُهم، بل يهدد بلاءُ الله سبحانه وتعالى العبادَ، ومستقبلَ الإنسانية جمعاء في وجودها. فبعد أن نجحت الكشوفات الطبية في زرع الأعضاء، وفي الاطلاع على خبايا المُوَرِّثات، هاهم الآن يُطبِّقون، بعد أطفال الأنابيب، مسخَ الإنسان واستنساخَ الإنسان، حتى يصبح الإنسان بضاعةً تُصنَّع، حتى يصبح الإنسان لا شخصية له، مرْتهِنا بمشيئة الطبيب في مختبره، والمكتشف في لَعِبه بالجِينَات الوراثية.

الحال الآن في العالم وفي المغرب غير الحال التي كانت من قبل، فقد استفحل عبثُ الإنسان بالإنسان، واستفحل عبث الإنسان بالمجال الحيويِّ للإنسان.

فأصبحت البيئة والتلفُ الحادث لها والمُحْدَث، من جرَّاء العوامل المستهلِكة في المجتمعات الاستهلاكية، خطرا يهدد مصير الإنسانية بالانقراض. وخطرٌ ثانٍ لا يقل عن الأخطار الأخرى، هو خطر الهجوم والهيمنة الاقتصادية في ما يسمى الآن بالعولمة الاقتصادية، ومعناها أن يأكل القوي الضعيف في هذا النظام العالمي الاقتصادي الغابويّ.

لنرجعْ من ذلك العمق البحثي الذي كنا فيه في الجلسات الأولى، عندما كنا ننتقد الحكمَ العاضّ، إلى واقع مُلِحٍّ وسريع ينتظر منا أن نغشى عالم السياسة، وأن نغشى عالم الأفكار، وأن نشارك في مدِّ يد العون للإنسان المَنْهوك في العالم، من المسلمين ومن غير المسلمين، لأن الإسلامَ رحمةٌ للعالمين، ولأن الله عز وجل بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين، والأمة أمته، أمة الاستجابة وهم المسلمون اليوم، وأمة الدعوة وهم سائر الخلق.

فإذن بعد هذه البسطة، بما هو العالم عليه اليوم، نرجع إلى أنفسنا ونحن مُنادَون لكي نقتحم العقبات ولكي ندخل في الميادين السياسية والفكرية، وميادين المشاركة في الآفاق وتغيير المجتمع. نرجع من كل ذلك لكي نسائل أنفسنا، لكي نقف وقفة طويلة في هذه الجلسة الحادية عشرة، لنسائل أنفسنا: من نحن وماذا نريد؟ وكيف نريد؟ وإذا أردنا كيف نعمل؟ وكيف نعلم؟

أسئلة نتعرض إليها بحول الله تباعا وقد سجلتها في وُريْقات معي، أنظر إليها لتذكرني بتسلسل أرجو أن يكون موفَّقا.

فإنه قد اغتنت الجماعة واكْتَنزتْ خيرا، بالوافدين عليها الكُثر الذين لم يحضروا معنا تلك الفترة التي كنا فيها قِلَّة، وكانت لدينا مَنْدوحة من الوقت للجلسات الطويلة نبحث فيها علاقتنا مع الله عز وجل. ولعل بعض الإخوان الطّارئين على الجماعة ومِمَّن تطوّرت بهم الأعمال في الجماعة إلى أن أصبحوا

ذوي مسؤوليات في السنوات السَّبع الأخيرة، والذين لا يزالون منهم في بدايات الطريق، لعل كلامي بهذا الترتيب وهذا التسلسل يكون تذكيرا للسابقين، وتبصيرا للاحقين، وهداية لنا أجمعين. أسأل الله عز وجل التوفيق

إن العالم يشهد تغيرات كبيرة، ويشهد المغرب أيضا تغيرات سياسيةً، يقول عنها أصحابها إنها تغييراتٌ جديدة وجِدِّية، وقاصدة وصادقة. لم يكْفِهم أن يُعلنوا ذلك في وسائل الإعلام، بل أجمعوا أمرهم، بما فيهم الأحزاب السياسية والسلطة والنقابات، بل جمعتهم السلطة حوالَيْها، وسطَّروا شيئا سمَّوْه الإعلان الجماعي أو ما شابه، نسيت الاسم. كان من المنتظر أن يُسَمُّوه ميثاق شرف، ترجمة من الكلمة الإنجليزية «*gentleman's agreement*»، ثم خجلوا أن يُنعت رجال السلطة الحاكمون في البلد، أو أن تُنعت الأحزاب السياسية والنقابات والجماعات والمجتمع المدني بأنهم في حاجة إلى شرف، وإلى ميثاق شرف، فأطلقوا عليه اسما آخر.

ما مصداقيةُ ادعاءاتِ أن المغرب في تغير جذري، وأنه مقبل على ديمقراطية حقيقية؟ ويهيئ الناس قوانينَ انتخابيةً ومواثيقَ انتخابية ومواثيق شفافيةٍ، إلى غير ذلك من الأسماء التي اكتظَّ بها المجال السمعي البصري، واكتظت بها الجرائد الرسمية والحزبية. نترك الهَباب للهباب، نُسميه الهُباب، بضم الهاء، على وزن فُعال، وهو الوزن الذي يصلح للأشياء التافهة المرذولة التي لا قيمة لها. نترك الكلام، وننظر فيما تحت الكلام.

إن هذه التعبئة من تغييرٍ للدستور، وإقامةِ ديمقراطية، وتآلفٍ بين الأحزاب والسلطة، كل هذا إنما هو موجَّه للقضاء على الحركة الإسلامية في المغرب، فهي مُقْصاةٌ سياسيا، ومتّهمة في الإعلام الغربي والمحلي. وليس في الإعلام الرسمي إلا ما ينبئُنا بأنهم تجنَّدوا للحملة الإعلامية المُبيَّتة ضد الإسلام، في

معاهد البحث الاستراتيجي في أمريكا وأوروبا، وفي مؤتمرات الأمْن في تونسَ والقاهرة وغيرها. القضية قضيةٌ أمنية قبل كل شيء، والذي يُراد أن يُؤتَمَن منه ويُخاف منه هو الإسلاميون. وأنتم، معشرَ الإخوة في جماعة العدل والإحسان، في طليعة من يُراد بهم السوءُ ومن يُمكر لهم. ونقول نحن كما قال نبينا نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1]. وما نحن إلا كما قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[2]، نقولها ونكررها: حسبنا الله ونعم الوكيل! حسبنا الله ونعم الوكيل! حسبنا الله ونعم الوكيل!

نمضي إلى النقطة الثانية، ما موقع جماعة العدل والإحسان، خاصةً وأن بعض الإسلاميين يباركون ما يجْري، بل يسعون لركوب هذه المركبة؟

لا نظُنُّ بإخواننا، رجالِ الدعوة في هذا البلد، إلا أنهم صادقون. إن كانوا يُسايرون الحكم فيما يجدِّده من أساليب التَّعْمية فَعَنِ اجتهاد، لا نظنُّ غير ذلك. هم على كلٍّ إخوتنا اليوم وغدا! عندما يتبدد التعتيم السياسي الأمني الإعلامي الماكر، وعندما تنجلي الغُمة والغِشاوة عن الأذهان، هم إخوتنا اليوم وغدا!

نقطة أخرى، ألا يؤدي عدم مشاركة الجماعة في متغيِّرات المرحلة واتخاذها هذا الموقف الانتظاري، كما يعبر البعض، إلى تسرُّب اليأس إلى صفوف أعضائها؟ لو كنّا حزبا سياسيا ينتهز الفرصَ ويتفاعل مع الأحداث الطارئة، إذن لكُنَّا مغْبونين في توقُّفنا عن المشاركة. أفإذا سارع الناس وسارعت الأحزاب إلى انتهاز الفرص والدُّخول في المَعْمَعان، نسرع نحن بدون روية كأنْ ليس

(1) سورة يونس، الآية 71.

(2) سورة آل عمران، الآية 173.

لنا هدفٌ، ولا غايةٌ، ولا منهاج يوضح لنا الطريق، كأنْ ليس لنا معيار نقيس به الصدقَ من الكذب، والعبثَ من الجِدّ؟

معيار، منهاج، مفعال، آلة للعلم وآلة للعمل.

نسارع إذن، كلما استفزَّنا مستفزّ وقال: هذا موقفٌ انتظاري، فاتَكُم الرَّكبُ؟ أيُّ ركبٍ يا إخواني وأيّ قطارٍ فاتنا، وبم هو مَحْشوٌّ هذا القطار؟ أنتم تعلمون أنه محشُوٌّ بالنفاق، محشوٌّ بالظلم، يركبه من كذبوا على هذه الأمة في المغرب منذ أربعين سنة، ولا يزالون يكذبون ويخترعون. ويعانق بعضهم بعضا كما يتمسّك الغريق بالغريق. الدليل على أن المركبةَ في معمعان لا يُدرى أَهُوَ مما يستحق أن يثق به الناس، هو أن مَنْ في داخل المركب يتناثرون ويهربون منه. فقد استقال في الأيام الأخيرة واحد من قادة النقابات، استقال من النقابة ومن الحزب، لأنه يدرك أن هذا التحالف، لعله يدرك، بأن هذا التحالف لا يسير إلى خير. فإذن من فتح صدره لتَنْزغَ فيه نَوازِغ الشك في موقفنا، وليتسرَّب لعقلِه وقلبِه نَفْثُ شياطين اليأس، فلْيراجعْ حسابَه معنا، ولْيُراجعْ حسابَه مع الله عز وجل، ثم أمضي إلى نقطة أخرى.

صدرت هذه السنة أجزاء من المنهاج السياسي للجماعة. صدر كتاب «في الاقتصاد»[1]، وصدر كتاب «حوار مع الفضلاء الديمقراطيين»[2]، وكتاب «الشورى والديمقراطية»[3]، ويصدر هذا الشهر إن شاء الله كتاب «حوار بين الماضي والمستقبل»[4]، وصدرت كتب أخرى، «رسالة إلى

---

(1) في الاقتصاد، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1995.

(2) حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى 1994.

(3) الشورى والديمقراطية، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1994.

(4) حوار بين الماضي والمستقبل، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1997.

الطالب والطالبة»[1]، و«المنظومة الوعظية»[2]. كما صدر أيضا كتاب «تنوير المؤمنات»[3]. ولعل هذا الكتاب يكون، إن شاء الله، من أهم ما صدر من كتُبِنا، لأنه يفتح لنا مجالا واسعا للتعامل مع المؤمنات، وهُنَّ جُزءٌ لا يتجزَّأ من الجماعة، بل هنَّ في الطليعة. وقد ذكرت آنفا ما أصابهن من هجوم الوحوش الجلاوزة عليهن في فاس. «تنوير المؤمنات» هو منهاج عمل المؤمنات، ومنهاج فَهْمِ المؤمنات لما نريد وما نقصد، لكنه لا يُغني عن منهاج الجماعة، «المنهاج النبوي»[4].

فما موقع المؤمنات على الواجهة العدلية وعلى الواجهة الإحسانية لجماعة العدل والإحسان؟

الواجهة العدلية هي واجهة الصدام، وواجهة المشاركة، واجهة التعليم، وواجهة إيقاظ هذا الشعب النائم، المَكذُوبِ عليه، من سُباتِه. والمؤمنات يشاركن فعلا. أما مشاركتهن في الواجهة الإحسانية فلن يُطلَب إليهن أقلُّ مما يُطلب من المؤمنين، وأرجع إلى هذه النقطة بعد حين إن شاء الله تعالى، وهذا يسير بنا إلى النقطة التالية.

منذ عشر سنوات رفعت الجماعة شعار «العدل والإحسان»، فهل من حديث عن مدى تجَذُّر هذين المفهومَيْن بين أعضاء الجماعة أولا، ثم دعوةً وإشعاعا ثانيا؟

---

(1) رسالة إلى الطالب والطالبة، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1995.

(2) المنظومة الوعظية، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1996.

(3) تنوير المؤمنات، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1996.

(4) المنهاج النبوي، الشركة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1989. وطبع قبل ذلك مجزأ في مجلة الجماعة، من العدد 8 إلى 11، سنتي 1981و1982.

مكتوبات الجماعة، وحديث الجماعة، ومنهاج الجماعة في الفكر والعمل لا يجيء في فراغ، ولا في فضاء حرٍّ، بل في ضِيق الحصار القمْعي الأمني السياسيّ، في محاصرة الدعايات الإعلامية، وفي محاصرة التشكيك الذي يُناوِشنا بنَزَغاته الناسُ من ذات اليمين وذات الشمال.

وصلني منذ نحو نصف ساعة احتجاج على أنَّ جماعتَنا تتكون من قوم لا يتعلمون ولا يقرؤون، من قوم تهدِّدهم الأمية لا يقرؤون إلا إصدارات الجماعة، ويشمئِزُّون من الكتب الأخرى. احتجاج فيّاض مستفيض على شكل مؤلَّفٍ مطبوعٍ طبعا جيدا، نظيفِ الإخراج. لمَّا أقرأْه، ولكن تصفَّحتُه وفهمت مضمونه العام، يشتكي فيه كاتبه، ولعله من جماعتنا، أننا جماعةٌ لا تقرأ. وكأن ما أصدرناه من أول وهلة كان دعوةً للجهل! الخَصلة الخامسة من خصال شعب الإيمان العلم. التعلم. نحن دعاة علمٍ، لا دعاةُ جهلٍ. لكن كيف نتعلم علم الدعوة وهو أفسح المجالات في الفقه الإسلامي، مجالٌ لا يزال في بدايات الاجتهادات؟

ماذا نقرأ؟ والاجتهادات كثيرة، منها من قرأ مؤلَّفا ممن سبقونا بالإيمان رحمهم الله فوقف عنده، ومنها من التقط من هنا وهناك، ومنها كتابات شيعيَّة وأخرى سُنية، وهذه سَلَفية، وهذه صوفية، وهذه تقدمية وهذه اشتراكية. ماذا نقرأ وكيف نقرأ؟ دعَوْنا إلى العلم وإلى التعلم. هل نقرأ ما يكتبه الاشتراكيون ونعيد قراءة ماركس لكي نُصَوِّبها؟ هل نتنازل لمن ينتقدون فكرنا فنتخاذل عن بعضه ونتنازل؟ ماذا نقرأ؟

لا نزال منذ سنوات نحذِّر إخواننا وأخواتنا من الإسلام الفكريّ، هذا الذي أنِفَ وهذه التي أنِفَت من الاستماع ومن الاسترشاد، وزعمَ هو، وزعمتْ هي، أنها تستطيع أن تطير بجناحَيْ فكرها، وأن يطير هو بجناحي فكره في أجواء العلوم

والقراءات، بلا دليل وبلا شعور بالحاجة إلى دليل. نحن شعرنا، والمنة من الله عز وجل، بالحاجة لمن يدُلُّنا على الله، ولمن يعلمنا، وما كتَبْنا المنهاجَ النبوي حتى قرأْنا ما شاء الله من المكتوبات الإسلامية للمعاصرين، ومن فِقْه سلفِنا الصالح، ومن القرآن الكريم وتفسيراته، والسنة النبوية وكيف فهمها الناس.

الإسلام الفكري هو أن تهجم على الدعوة، وهي المجال الأفسح والمجال الشاسع في الفقه، فتنتقل كالفراشة الهائمة المعجبة من زهرة إلى زهرة، يُنسيك لون هذه لونَ تلكَ، وينسيك عبقُ هذه عبقَ تلكَ. فإذا أنت تنْتقي بمعيارٍ من عندك، إن لم يكن لك معيار، تُكَوِّن معيارا ومنهاجا لنفسك. وعندئذ تصبح جماعة العدل والإحسان عبارة عن ما شاء الله من الخلق، لكل واحد منهم مفتاحُه للفهم، وأسلوبُه في التفكير، وحريتُه في فهم الأشياء كما يريد. وعوض أن نتقدم للميادين التي تنتظرنا، وهي ميادين مَهُولة ممتلئة بالتهديدات، نتقدم إليها شتيتا من الناس وشتيتا في الفكر، أشتاتا في العلم وأشتاتا في المرجعية، أشتاتا في الإرادة وأشتاتا في المواقف.

كنا كتبنا أن العمل الإسلامي والجماعة الإسلامية يراد لها الرُّشد ويُرجى لها السَّداد، إن كانت النواظمُ الثلاثُ هي الجامعةَ، لا التشتُّتُ في اختيار كل فرد لما يقرأ، ولما يعلم، ولما يعمل، واختياره لانتمائه الكلي أو الجزئي لمن يشاء، لا ما يكون من اختيار الجماعة واجتماعها وإجماعها.

الحب في الله، والتفاهم بعد الشورى، والعمل المنظم المرتب، من ظن أن واحدة من هذه يمكن أن نستغنيَ عنها؛ من ظن أننا نستغني عن التَّحابِّ في الله فقد طعن في القرآن الكريم، حيث وصف الله عز وجل أصحابَ محمد ﷺ بأنهم أشِدَّاء على الكفار رحماءُ بينهم، وجاءنا في الحديث القدسي أن الله عز وجل أوجب محبَّتَه للمتحابين فيه، والمتناصحين فيه، والمتزاورين فيه،

والمتجالسين فيه. ومن طعن في الثانية وهي التفاهم بعد الشورى فإنما يريد لنا أن تذهب بنا المذاهب، ونسلك في بنيات الطريق، كلٌّ في مَسلكِه، بدعوى أنه حرٌّ وأن له عقلا وفهما كما هو يشاء. فإذا كنت أخي وأنت أختي، وأولئك الإخوان وأولئك الأخوات، وهم بحمد الله آلاف، إذا كان كل واحد منهم يختار لنفسه ولعقله، لأنه حر في تفكيره، فما قيَّدْنا أحدا!

المنهاج النبوي أداة فهمٍ وأداة علمٍ وأداة قراءة، لكي ترتب ما تقتنيه من علوم بعد ذلك في سُلَّم أولويات. هَبْ أن معك آلافَ الأسْفار مبعثرةً، لم ترتبها ولم يفَهْرسها من كتبوها، ولم تستنبطْ منها الفائدة، حتى لم تضعْها في دُرْج أوأدراج، ولم تُرتبها بحيث تعلم أين تجد بُغْيتَك في الموضوع الفلاني والموضوع الفلاني، تكون إذن من الذين يمشون في الظلام ويشجعون على الفوضى.

أمضي إلى النقطة التالية، يشتكي كثير من الإخوة من صعوبة الجمْع بين العدل بما يتطلبه من حركةٍ وتكوينٍ وتدافعٍ، وبين الإحسان وما يطلبه من تقوى وتَبتُّلٍ وانقطاعٍ، خاصة وأن هذين الأمْرَين افترقا قرونا. هذا السؤال يرجع بنا إلى اسمٍ جماعتنا، «جماعة العدل والإحسان»، وهما مقْترنان في كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[1]، فكيف نجمع بينهما؟ هل نتخلى عن العالم وننْزوي في صومعة العابد، وفي زاوية الصُّوفي؟ أم هل نترك العبادة وذكر الله، وننسى علاقتنا مع الله عز وجل، لنتفرغ لعلاقتنا بالناس، نُدافعهم ويدافعونَنا، نصارعُهم ويصارعونَنا، نَغْشاهم في نَدَواتهم وفي مجالات نشاطهم؟ كيف نجمع بين عبادة الله عز وجل وبين العمل الصالح؟ كيف نجمع بين العلم والعمل؟ كيف نجمع بين شتات فقه الدعوة، كيف نرجع إلى الأصل؟

(1) سورة النحل، الآية 90.

إن كان انتساب المؤمنين والمؤمنات إلى جماعة العدل والإحسان انتسابا سياسيا، لإعجاب بموقفٍ صامد أو موقف ثابت، وإن كان الانتساب رغبةً في المشاركة في تغيير المجتمع وننسى أنفسنا، أو كان الانتساب نزهةً أو فرصة أو تجربة فلسنا جميعا هناك، ولسنا من الذين يُنتظر أن تَتنزَّل عليهم سكينة الله، ونصر الله، وفتح الله.

إخوتي وأخواتي في جماعة العدل والإحسان، أنتم الذين عشتم الجماعة في سنواتها الأولى، قبل السجون والابتلاءات والحصار والمكر والأذى والهجوم على الجامعات، تذكرون أن مجالسنا كان يقال فيها ويُكرَّر: إن جماعتَنا جماعةُ دعوة قبل كل شيء، وهذا يُميِّزنا عن الأحزاب السياسية. جماعتُنا دعوة إلى الله، وهذا يُميزنا عن الدعوات إلى تغيير المجتمع باسم الإسلام وباسم غيره. فالمنتسبون إلينا من ذلك الرعيل الأول من الإخوان والأخوات سمعوا هذا وعاشوه، أما من جاءوا بعدهم فأطلب إليهم ألا يستفزَّهم مثلُ هذا التساؤل. الانتساب إلى جماعة العدل والإحسان انتسابٌ إلى ناس، إلى رجال ونساء بالفعل، لكن إن كان الواحد من أعضاء جماعة العدل والإحسان يَعُوق الآتيَ إلينا والمنتسبَ إلينا، ويَحُول بينه وبين الله عز وجل، يَحُولُ بينه وبين الانتساب إلى الله عز وجل وإلى رسوله وإلى كتابه، فإنما نحن جماعة من المُشَعوذين.

يأتينا الوافد، وتأتينا الوافدة، وقد سمعوا أن في جماعة العدل والإحسان خيرا، وأن في الجماعة صدقا، وإرادة جهادية، وأن فيها علما وتعلما وأن فيها ذكرا لله، وفيها وفيها؛ فحَقُّ الوافد علينا والوافدة أن نصبر معه، ونصبر معها، وأن نصبر مع كلِّ فردٍ، الوقتَ اللازمَ والجلساتِ اللازمةَ والاستضافاتِ اللازمةَ، والملازمةَ الواجبةَ حتى يفهم قصدَنا، ويفهم أن الإحسان معناهُ أن تعبد الله كأنك تراه.

كيف نصل إلى هذه المرتبة؟ نصبر مع كل وافد ووافدة، حتى يتعلم معنا من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسول الله ﷺ أن الدين إسلام فإيمان فإحسان، وأنها درجات، وأنها مراتبُ في الدين، وأن هذه المراتبَ تُنالُ بتدَرُّجٍ.

تدَرُّجٌ في الصحبة والجماعة، وتدَرُّجٌ في الذكر وثبات على الصدق، ثم انتظار لثمرة البذل لغلبة شُحِّ النفس واتِّقائه، ووقاية الله عز وجل العباد شُحَّ النفس، ثم إلى خَصلة العلم، ثم إلى العمل، ثم إلى السَّمْتِ، فالتُّؤَدة، فالاقتصاد فالجهاد. هذه خصالٌ يقرؤها الناس في مِنهاجنا، ويقولون: ما لكم لا تقرؤون ما بالكم أمِّيون، لا تحبون أن تَطَّلِعوا ما يكتبه الناس؟

أفتريدون أيها الناقدون أن نَعْكِف على قراءة الجرائد اليومية، كلَّما حدث خبر، واستفزَّنا حدث، وأعجبنا كاتبٌ لبِق، أوحضَرْنا محاضرةً، فاستفدنا منها فائدة أو فائدتين، وتكلم الفصيح المحاضر، والخطيب المِصْقاع[1]، كلما حدث ذلك اكتفينا، وملأْنا من هذه البضائع اليومية، المتجددة المتطايرة كورق الخريف، وِقَابَنَا ونكتفي؟

هذا المنهاج سمَّيْناه المنهاجَ النبويّ، تربية وتنظيما وزحفا. التربية أولا معناها أن نقف مع هذا الذي وفد علينا، وهاته التي وفدت حتى يتعلما أن مبدأَنا وبدايةَ عملنا هو أنتَ، هو أنتِ أيها الوافدة، من أين جئتَ وإلى أن تسير وإلام تصير؟ أخبرك الله عز وجل بأنه خلقك من سُلالة من طين، وهو خلق سيدنا آدم : ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾[2]، خلقك أحسنُ الخالقين، فماذا تفعل في هذه الدنيا

---

(1) المصقاع: الخطيب البليغُ يتفنَّن في مذاهب القول.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان 13-14.

وأنت صائرٌ بعدها للموت؟ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1]. هنا نقف أولا وأخيرا!

انتسابك إلى الله عز وجل هو انتسابٌ إلى الخالق القادر سبحانه وتعالى الذي بعث لك رسولا يعلمك دينَك، فترَك فينا كتابا جاء به من عند الله هو القرآن، والوحيَ الثانيَ سنةَ رسول الله ﷺ. هل يستجيب واعظ الله في قلبكَ وقلبكِ لداعي الله على ناصية الصراط المستقيم؟ كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه الإمام أحمد والحاكم في المستدرك: «**ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب سُتُور مُرْخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرَّجوا، وداعٍ يدعو مِن فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إنْ تفتحْه تَلِجْهُ، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الدَّاعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم**»[2].

القرآن كتاب الله يدعوك بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾، تستجيب أو لا تستجيب تطيع أو لا تطيع، تكون من الخاسرين أو من الفائزين. يتوقف الأمر كلُّه على استجابتك، على انتسابك لله عز وجل. أغْمِض عينيْك وكأنَّ جماعة العدل والإحسان لم تكن يوما في الوجود. أنت موجود والقرآن موجود، والله عز وجل خلقك وأنشأك في أحسن تقويم، فإلامَ تصير؟ وإلى أين تسير؟

إن لم يدُلَّك دالٌّ ولم يهْدِك هادٍ، فالناس جميعا يقرؤون القرآن، وإنما هي حروف وكلمات وآيات وسور، تحفظ، تقرأ في الصلاة، والناس غافلون عن الله، والناس لا ينتسبون إلى الله. فكيف ننتسب إلى الله عز وجل؟

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 15-16.

(2) مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث النواس بن سمعان، 17634.

المنهاج النبوي، الذي يَلُومُنا بعضهم على العكوف على قراءته، ما هو إلا مفتاح نظريٌّ نضعُه بين يديك أيها الوافد، وبين يديك أيتها الوافدة، لتفتح وتفتحي مغالقَ العِلم في ذهنك، ومغالق الشُّحّ في نفسك، ومغالق الغفلة في قلبك. فتنفتحَ على كتاب الله عز وجل تسْتَقِي منه العلمَ وتتعلَّم. ثم إن الانتسابَ إلى الله عز وجل إما أن يكون انتسابَ مسلمٍ ومسلمةٍ اكتفى بصلاته وصيامه وزكاته وحجه، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وقد دخل في حظيرة الإسلام، فهو في خير وعافية. أو يكون الانتساب إلى الله عز وجل هو طلب المزيد. أنا مسلم أريد أن أزداد إيمانا، فما العمل؟ كتبنا بضعـًا وسبعين شعبةً وشرحناها، وقال الناس لماذا تقرؤون كتاب المنهاج النبوي؟ المنهاج النبوي جاء بشعب الإيمان التي استقيناها من كتاب الله وسنة رسوله.

انتسابك إلى الله عز وجل وانتسابكِ أيتها المؤمنة إلى الله عز وجل يعني أن تطلبي ما عند الله عز وجل في الآخرة، وأن لا تكوني، وأن لا تكون أنت أيها الأخ، من الذين رضُوا بالحياة الدنيا من الآخرة فكانوا من الخاسرين. الانتساب إلى الله عز وجل في تَوَقانك وفي شوقك إلى مقام الإحسان، أن ترجع إلى الله عز وجل، وأن يرفعك إلى حيث يكون طلب وجه الله عز وجل يُغطي على طلب كل شيء؛ إرادة الآخرة ثم إرادة وجه الله. وإذا تقربت إلى الله عز وجل حتى أَحبَّك فقد حصل لك الخير كله. وهذا كلام لا نجده، يا أيها الذي قال لماذا لا تقرؤون، فيما يكتبه كثير من الناس.

يقولون: تحبُّ الله، تحب رسول الله، تقومُ تذكرُ الله آناء الليل وأطراف النهار، أنت إذن صوفيٌّ، والصوفية مُخرِّفون وبِدْعيون، فلا حاجة لنا بهذا! ما فاتك يا مسكين من الخير، لا يمكن أن تتصوره أو يتداركَك الله عز وجل برحمةٍ من عنده!

ابْكِ على نفسك يا مسكين، لعل اللهَّ عز وجل يقذف في قلبك بَرْقَةً من النور ومن الشوق إليه، فتقرأ كتاب الفتح الرباني[1] للشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله، هذا رجل أفضى إلى ربه منذ قرون طويلة، لا ينتظر منك جزاء ولا شكورا، نصحك نصيحة كاملة. اقرأ هذا الكتاب! اقرأه في ثلاثة أيام متتالية، وانظر أي استجابة! هذا داعٍ إلى الله، من الدُّعاة الذين أجمعت الأمة قاطبة منذ قرونٍ على صلاحه وكماله في الولاية، وهو يدعوك إلى الله فماذا تكون استجابتك؟ هذه الكتب الكثيرة المتكاثرة، فيها الغثُّ والسَّمين، هذا واحد أعجبه أسلوبُه، وأعجبه أن يمسك القلم وأن ينشر، فيقال فلان كتب في جريدة أو في مجلة! مؤلفات!

وإن من هذه الكتب ما هو خير وذخيرة. ما كتبه المودودي رحمه الله، وما كتبه سيد قطب رحمه الله بأسلوبه ذاك الفاخر الجميل الرائع، وما كتبه حسن البنا رحمه الله وخَطَبَه، وقد كان خاطبا مِصْقاعا[2] رحمه الله، وما يكتبه الصادقون ممَّن قضَوْا وممن لا يزالون ينتظرون. قلَّما نجِدُ!

وقد كتب الدكتور سعيد رمضان البوطي في موضوع التصوف، وكتب سعيد حوى «تربيتنا الروحية» رحمهما الله. ويكفيك أن ترجع إلى مذكرات واحد من أكبر مؤسسي الحركة الإسلامية الحديثة، حسن البنا رحمه الله، وهو كان العالمَ سليلَ العلماء، ربيبَ بيت السنة، وكان أبوه من كبار العلماء المحدثين رحمهم الله جميعا، كيف شعر بحاجة إلى من يُرشده فذهب إلى مرشده الشيخ الحصافي. فشهِد شهادةً تجدها في مذكراته !

---

(1) الفتح الرباني والفيض الرحماني، للشيخ عبد القادر الجيلاني، كتاب وعظ يضم اثنين وستين مجلسا من المجالس التي كان الشيخ الجيلاني يعقدها في مدرسته. وكان الإمام عبد السلام ياسين يوصي بقراءته.

(2) المصقاع: الخطيب البليغُ يتفنَّن في مذاهب القول.

اقرؤوا مذكرات الرجال! يا قوم، يا أيها الذين يدْعونَنا إلى قراءة الكتب، اقرأوا مذكرات الرجال! شهد الرجل بأن فضل الله عز وجل لم يجِئْه بالتَّسكُّع في الصحف والكتب. وقديما قال سلفنا الصالح من العلماء العالمين: لا تأخذ علمك من صُحفي، إنما يؤخذ العلم من أفواه الرجال.

كتبت منذ عدة سنوات كتاب «الإحسان»، وكان المقصود أن يُنشر في سلسلة كُتيِّبات، نُشر منه الفصل الأول بعنوان «الرجال»[1]. وأوصي إخوتي وأخواتي أن يقرؤوا هذا الكتيب، فما وضعت فيه شيئا مِن عند نفسي، إنما هي شهادات رجالٍ من سلفنا الصالح، ما منهم إلا من احتاج إلى مرشد، وقد كان ملأَ وِفاضَه، بل ملأ الدنيا كلَّها علما. هذا الغزالي رحمه الله قرأ علوم الفلسفة، وكان فقيها شافعيا مجتهدا، قرأ وقرأ، قرأ علوم عصره حتى أصبح حجةَ الإسلام، ثم شعر بالحاجة إلى من يرشده، فذهب يبحث عن متبوعٍ مُقَدَّم، كما يعبر هو.

يا من يقول: اقرؤوا الكتب! هَبْ أنك عكفت على الكتب حتى وافَتْكَ المَنِيَّة، بأي حصيلة تذهب إلى الآخرة؟ بشتات من العلوم، بشتيتٍ من الاجتهادات؟ والحصيلةُ صفرٌ؟ إن الأفكار والآراء والاجتهادات المتناقضة ينقض بعضها بعضا، فتكون الحصيلة صفرا! التقاء السالب والموجب يساوي في علم الرياضيات صفرا. زائد ألف، ناقص ألف، يساوي صفرا!

نقرأ شهادات من سبقنا بإيمان، علَّ وعسى نتعلم حقيقة نبوية ناصعة لا تحتاج إلى تأويل، ولا إلى تقديم، ولا إلى شرح، ولا إلى اجتهاد. النبي ﷺ قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[2]. أمَرَكَ! نَصَحكَ! ما

(1) الرجال، للإمام عبد السلام ياسين، هو أول فصول كتاب «الإحسان»، نشر في كتاب مستقل قبل صدور كتاب الإحسان كاملا.

(2) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، (8417).

دفَعكَ إلى الكتب والقراءة! حتى إذا اكتمل دينُك، وعرفتَ إلى أين تتجه، عند ذلك لا بد أن تتخذ للجهاد وسائله. فالجهاد يريد منك علما، لا سيما في عصرنا هذا، ويريد منك اطلاعا، على دينك أولا وهو العلم النافع، ثم اطلاعا على العلوم، علوم السياسة وعلومِ الاقتصاد وعلوم الاجتماع، وميدانِ تخصصك. تقرأ، وتقرأ وأَنت منْجمعٌ علىَ الله.

ما معنى الانْجِماع على الله؟

الانجماع على الله كلمة سهلة بسيطة. الانجماع على الله هو أن تكون لك قبلةٌ واحدة، أن يكون لك مقصودٌ واحد هو وجه الله عز وجل، وأن تتلخصَ مقاصدُك وتنجمعَ في مقصد واحد وهو إرادة وجه الله. ولا بد أن تصبر مع هذا!

في القرآن الكريم وصيةٌ لرسول الله ﷺ، جاءتنا منزَّلةً من جناب النبوة، أوصاه الله عز وجل: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾[1]، وصيةٌ إلهية أَكَّدتها وشرحتها الوصية النبوية «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[2]، وطبَّقها الصحابة رضي الله عنهم في قول بعضهم لبعض «**تعال نؤمن ساعة**»[3]. فإن استغْنَيتَ وأعرضتَ، وقنعتَ باطِّلاعك على الكتب وفهْمِك، وانفتحتْ لك أبواب العلوم والفهوم، وأصبحت دكتورا! فأنت وما اخترت لنفسك!

(1) سورة الكهف، الآية 28.

(2) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، (8417).

(3) روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه، يقول: تعال نؤمن بربنا ساعة، فقال ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟ فقال النبي ﷺ: «**يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة**».

الانتساب إلى الله يبدأ بالتربية أولا وقبل كل شيء. والتربية أن يكون ليلُك ليلَ المؤمنين، وأن يكون نهارُك نهارَ المؤمنين. ﴿**إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا**﴾[1]، تسبح في عوالم السياسة وعوالم الجدل والحوار، وعوالم التعامل مع القريب والبعيد ومع العدوِّ والصديق، فإن لم تكن لك ساعات مع الله عز وجل لقيام الليل والبكاء عليه، وساعة لتلاوة القرآن للتدبر والاعتبار، فقد انْهَمكَ ليلُك في نهارك، وتشتَّت شمْلك، وتعذَّر عليك الانجماع على الله.

الانجماع على الله ليست كلمة في الفضاء، بل هو شعور، وعلم، وحياة! كيف أحصل على هذا؟

قال الله سبحانه وتعالى وهو أحسن القائلين: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ**﴾، كن مع، وقال رسول الله ﷺ: «**فلينظر أحدكم من يخالل**»، وأنت استغنيت عن الخُلَّة وظننتَ أن الكتب تكفيك!

قال أبو حيان الأندلسي:

إذا رُمْتَ العلوم بغير شيـخٍ *** ضللتَ عن الصِّراط المستقيم
وتلتَبس الأمور عليك حتى *** تصيرَ أضَلَّ من طُوبا الحكيـم

طوبى الحكيم هذا كان تعلم من الأوراق والكتب فأصبح طبيبا، قرأ في كتاب عن التداوي بالحبة السوداء، وكانت ذبابة أحدثت نقطة بجانب نقطة الباء في الكتاب، فقرأها «الحية السوداء»، فأصبح يقتل الناس! كذلك أنت اكتفيت بنفسك، تقرأ الدعوة بنقطة ذبابية فتقتل الناس بالسُّم، وتظن أنك تعالج نفسك وتعالج الناس بالحبة السوداء!

---

(1) سورة المزمل، الآية 7.

المدخل أيها الأخ الوافد، أيتها الأخت الوافدة، هو صحبةُ من يدُلُّك على الله، لكي تحبَّ الله، ولكي يحبَّك الله. وإذا أردت أن يحبكَ ويحبكِ الله فجالسِ المؤمنين، وجالسي المؤمنات. «**حقَّتْ محبتي للمتحابِّين فيّ**» حديث قدسي. يا أيها الناس المُكْتَفون بشتات العلم وشتيت الفهم، هذا كلام الله عز وجل «**حقَّتْ محبتي للمتحابين فيّ والمتزوارين فيّ والمتجالسين فيّ**»[1]. وارجع إلى رياض الصالحين للحافظ النَّوَوي رحمه الله، واقرأ ما جاء في مجالس الذكر. فمِن مجالس الذكر تتربى في القلب الخَلِيِّ رغبةٌ في الله عز وجل، وإرادةٌ لوجه الله عز وجل، ثم عزْمٌ وعزيمة للسَّير إلى الله عز وجل والتقرب إليه.

كفى، لو كنا نعلم، لو كنا نُصَدِّق ما جاء من عند الله في كتاب الله وسنة رسوله، كان يكفينا أن نقرأ ما جاء في الحديث القدسي: «**ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها ورِجلَه التي يمشي بها**»[2]. وكان يكفينا، لو صدقنا رسول الله ﷺ «**فلينظر أحدكم من يخالل**». فلينظر! لام الأمر!

لكنك لا تستمع، فلا تطيع رسول الله ﷺ، فقد انْخَرَمتْ سنة رسول الله ﷺ في عبادتك وعقيدتك. وتجيء تُبَدِّع الناس، يا أيها المُبَدِّع، أيها المُكَفِّر! انْخَرمتْ سُنِّيَتك وسَلَفِيتك، لأنك لم تصدِّق رسول الله ﷺ ولم تُطِعْه، وإذا لم تطعِ الله ورسوله فلن تنال أبدا محبة الله، لأن محبة الله عز وجل مشروطةٌ بطاعة رسول الله ﷺ، واتباعِه وتصديقِ ما جاء من عند ربه. إن كنت تؤمن ببعض الكتاب وببعض السنة وتكفر ببعض فانظر أيَّ العباد أنت!

---

(1) المعجم الكبير للطبراني، باب الميم، (154).

(2) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (6502).

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[1]، واضح! محبة رسول الله ﷺ تبلُغ بنا إلى محبة الله، حتى يحبَّنا الله عز وجل، وغاية المقصود أن يُحبَّنا الله عز وجل. لكي يحبَّنا الله عز وجل يلزمُنا اتِّباعُ رسول الله، ومعنى اتباعِ رسول الله ﷺ طاعتُه في أمره: «**فلينظر**».

وما معنى يخالِل؟ الكتاب لا يُخالَل، بينك وبين مؤلف الكتاب مسافة بعيدة جدا، بينك وبينه الورق، بينك وبينه الحروف والكلام، بينك وبينه عوالمُ! لا يُخالَل الكتاب.

أتحب الله وتريد محبةَ الله؟ إن خَطرَ ببالك ذلك فنَعَمْ، وإلا فجالسْ من يدلُّونك على ذلك.

تحبُّ الله؟ أطِعِ الله! أمَر الله عز وجل رسوله قال: «﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾، اتبعوا رسول الله، وطاعة الله في اتباع رسول الله فيما أمَرَ ونَهَى. الواجب، الحرام، السنة، الندب، الفريضة، النافلة؛ أركان الإسلام وشعب الإيمان ثم مراقي الإحسان.

أيتها الوافدة، وأيها الوافد، أيها الوافدون وأيها السابقون في جماعة العدل والإحسان، إن المنهاج، اسمُ آلةٍ على وزن مفعال، آلة تستعملها، أيها النَّاهج، تسلك بها المسافات عبر عقبات، في رُقِيِّك وفي مِعْراجك من إسلام لإيمان لإحسان. ويوم القيامة يُحشر الناس على ما ماتوا عليه وعلى ما حصَّلوه في الدنيا، لأن الآخرة ليست دارَ عمل. فكيف تكون حسرتك لوْ فاتك مِن فضل الله عز وجل، المعروضِ عليك في كتاب الله وسنة رسوله، ما فات. الكافرون

(1) سورة آل عمران، الآية 31.

يؤمئذ يقولون: ﴿ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

النَّاهج المقتحمُ العقباتِ شخصٌ اتَّصَف بصفات قلبية وصفات علمية، وبهيئة نفسية إرادية عقلية تفكيرية سلوكية، وهذا يكون نتاجَ تربيةٍ.

أرأيت لو جاء أحد لا هيئةَ له نفسيةً، لا هيئة له قلبيةً، لا هيئة له فكريةً، ولا ترتيبَ له في علومه، فيطلع على الكتب، ويقرأ ويقرأ، حتى يصبحَ خزانة كتب أوما يشبه ذاكرةً إلكترونية، إذا كانت له ذاكرة خارقة. لكن، أن تَدُلَّه الصحف والكتب والمجلات وكلام الناس على الله، فلا!

فالذي يسمع كلام الله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، وكلام رسول الله: «**فلينظر أحدكم من يخالل**»، ويقرأ في كتابِ «الرجال» الفصلِ الذي نُشر من كتاب الإحسان، ولعل كتاب الإحسان يصدر عن قريب إن شاء الله، نسأل الله عز وجل التيسير والتوفيق، ثم يَطرح كلام الله، وكلامَ رسوله، وشهادة علماء الأمة وسلفَها الصَّالح، هذا من أين نشتري له همةً؟ من أين نُقْرِضه إرادةً؟ من أي نصنع له هيئةً؟ مثل هذا يرفض أن تكون له هيئة، يرفض مفتاحَكَ ويرفض منهاجَك!

إخواني وأخواتي، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. يحبهم ويحبونه. أحَبُّوه فأطاعوا أمرَه، واتبعوا رسولَه حتى أَحبَّهم. وهذا هو المَسلكُ الإيجابي.

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 99-100.

(2) سورة المائدة، الآية 56.

اقتداءً بسنة الله عز وجل في تعليمه بضرب الأمثال بالأضداد والمتشابهات، ومصداقا لقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[1]، أُورِد مثلاً معكوسا. تريد أقرب طريق إلى غضب الله؟ تريد أن يغضب الله عليك؟ كُنْ عزيزا على المؤمنين وكن ذليلا على الكافرين، تَنَلْ غضب الله! ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]، كذلك من لم يتبع الشرطَ وقَلَب يقلِب الله له فيبغضه الله عز وجل.

جئت بهذا المثل، أيها الإخوة وأيتها الأخوات، لأن من الأخطار ما يتهدد قلوبَنا ودينَنا ومصيرَنا إلى الله عز وجل، ليست هذه المُناوشات الفكرية من خارجٍ، بل الخطير جدا هو نَزَغاتُ النفس ونزغات الشيطان في النفوس، وتَقَبُّل النفوس لهذه النزغات الشيطانية التي هي التكبُّر والعزَّة على المؤمنين. الكبْر معصيةُ الشيطان، لكن الآدميَّ المتكبرَ على المؤمنين معصيتُه أكبرُ، وخطيئتُه أفحشُ من خطيئة الشيطان، تصبح فرعونيةً. ما قال الشيطان، عندما غضب عليه الله ولعنه، أنا ربٌّ وآدم مخلوق، ما ادعى ذلك. إنما قال: أنا خير منه، لكنه آمن واعترف بأن الله خلَقه، أما الفرعونية التي تتهدَّدُنا فهي فرعونية الآدمي، قال فرعون: أنا ربكم الأعلى، ما أُريكم إلا ما أرى.

وفي التنظيم داخل الجماعة إخوان وأخوات حُمِّلوا مسؤوليات تنظيميةً، فإِخالُهُمْ معَرَّضين أكثر من أي شخص آخر لهذا المنزلق الشيطاني الفرعوني، وهو التكبر على المؤمنين وعلى المؤمنات، وتابِعُهُ الذلة على الكافرين وعلى المنافقين. نعوذ بالله!

ضَرْبُ مثلٍ، وأرجع إليه إن شاء الله بالتفصيل.

(1) سورة الروم، الآية 57.

(2) سورة المائدة، الآية 56.

انحراف آخر يتهددنا، فإن كانت الفرعونية التي تحدثتُ عنها آنفا تسلُّطًا وعُدْوانية، فالانحراف الآخر انسحابٌ وانكماش ودروشة، وهذا مرض. قال بعض الناس: أنا أعبد الله وأقوم الليل وأصوم النهار وآتي الفرض والنفل، وهذا أعلم مصدرَه في كتاب الله وسنة رسوله، ولا عَلَيَّ في الناس، فلي مسلكي وحدي، ولي حرية عقلي، ولي فهمي وعلمي، لي ذاتي وشخصيتي، فلا أريد أن أنغمس في جماعة أذوب فيها، فأنا أعبدُ الله ولا حاجة لي بأحد! وهذا انحرافٌ أيضا.

وإن من الإخوان من هو قوَّام صوَّام ذاكرٌ عابد، يتلو كتاب الله عز وجل ويخاف الله، وفيه من خصال المؤمنين الكثير، لكنه يُبطِل ذلك العملَ عندما يتصرف التصرُّفَ الفرعوني الشيطانيَّ مع المؤمنين والمؤمنات، وعندما يزدري بهم ويحْتقرهم. أصبح هو نقيبَ شعبة والآخرون هَمَلٌ! أصبح نقيب جهة أو نقيب إقليم أو..، فاستغنى وتكبَّر، وقد كان فيما قبلُ ممن أعطى واتقى وصدق بالحسنى، وممن كانوا موعودين، بدليل كتاب الله عز وجل، أن يُيسرهم الله للحسنى، لكنه كذَّب واستغنى، ولم يصدِّق بالحسنى وبخِل.

فليقرأ في كتاب الله: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ، وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ**﴾[1] تردَّى: سقط في هُوَّة، وبطَل عملُه، مع أن مما يُتقرب به إلى الله عز وجل، ومما يَطوي المسافات في السلوك إلى الله عز وجل ويُسهِّل العقبات، تعظيمُ المؤمنين وحُرمة المسلمين، وإسداء الخير للقريب والبعيد.

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي الصحيح: «**يا ابن آدم مرضْتُ فلم تعُدْني، قال: يا رب كيف أعودُك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمتَ**

(1) سورة الليل، الآيات 5-11.

أن عبدي فلانا مرض فلم تعُدْه، أما علمت أنك لو عُدْته لوجدتَني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتُك فلم تُطعمني، قال: يا رب وكيف أُطعمك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمتَ أنه استطْعمَك عبدي فلان، فلم تُطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعَمتَه لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسْقَيتُك، فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك؟ وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقِه، أما إنك لو سَقَيْته وجدت ذلك عندي»[1]. الأجر في الإطعام وفي السَّقي وفي إسداء الخير للناس، جزاءه تجد ذلك عند الله، مما يدَّخره لمن عملوا صالحا من الحسنات. أما أن تحنوَ وتحبَّ، وتعطفَ وتحسنَ إلى الإنسان في أشد حالاته احتياجا، عندما يمرض مثلا، فقد قال الله عز وجل: ولو عُدْته لوجدتني عنده.

نحن نعتقد أن الله عز وجل أخبرنا بالعقيدة الصحيحة في كتاب الله وسنة رسوله، فلا ندخل في متشابهات الجدل الكلامي والكيْفِ والتَّشْبيه ونُنزِّه الله عز وجل، فما كُلِّفْنا بتشبيهٍ ولا تنزيهٍ، ولا بالدخول في متاهات علماء الكلام هلِ الله قادرٌ بقدرةٍ، أو بغير قدرةٍ، والصفة والموصوف، والذات والصفات. عقيدتنا سلفيةٌ صادقةٌ سليمةٌ بسيطةٌ، نقرأ ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فنؤمنُ ونصدقُ. الكيفُ لا نعلمه، ولكن عيادة المريض من أعظم النوافل للتقرب من الله عز وجل.

عليك بالتواضع ومحبة المؤمنين، والصدق مع المؤمنين، والرأفة بالمؤمنين والمؤمنات وعدم التكبر عليهم. دون ذلك، تكون أبْطلتَ ما ذكرتَ وما عبدتَ وما صدَّقت وما صُمت وما تقرَّبت، لا يُقبل منك ذلك، أتكسر قلوب عباد الله وتريد أن تتقرب إلى الله؟

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، (2569).

جاء في رواية للإمام أحمد رحمه الله حديث قدسي يقول الله عز وجل فيه: «**الكبرياء ردائي، والعزة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما أُلْقِهِ في النار**»[1]، والعياذ بالله. كن عزيزا على الكافرين من حيثُ أمَرَكَ الله بذلك، أما مع المؤمنين فإن تكبرت عليهم فقد عرَّضْت نفسك للخطر الرَّديء. عند الإمام أبي داود رحمه الله قولُ رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبْرٍ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال خرْدَلَة من إيمان**»[2]، فجاء التعارض هنا بين الكِبر والإيمان. الكِبر عكسُ الإيمان. الكبر كفرٌ. ومثقال حبة خردل من كبر لا تُدخل الجنة، ومثقال حبة خردل من إيمان لا تُدخل النار. لا يجتمع الكِبر والإيمان في قلب.

فمن نزغ إليه الشيطان فتكبر، واستحْلَتِ النَّفس الكبرياءَ على المؤمنين والمؤمنات فليستحضرْ هذا الحديث العظيم. استحضرْ هذا واستعِذْ بالله من الشيطان الرجيم، وحاسبْ نفسك وراجِعْها، فإن لم تفعلْ، فواجبُ الجماعة أن تتبرَّأ منك، لأنك دخلتَ في الفرعونية الشيطانية، وزهِدت فيما يقربك إلى الله عز وجل وأصبحت فرعونا مُشيْطَنا.

التواضع! التواضع!

أيها الإخوة. التقرب إلى الله عز وجل هو تعرُّضٌ لفضل الله سبحانه وتعالى، والله ذو الفضل العظيم. التعرّض لفضل الله عز وجل تعرض لعطاء كبير، ومن جاء إلى باب الكريم يسْتعْطي لا بدَّ له من وِعاء، وهذا الوعاء إما أن يكون كبيرا واسعا سليما، وإما أن يكون ضيِّقا، أو فيه من الضّيق والسَّعة ما فيه لكنه مثْلُومٌ مثقوبٌ، ينْثَري ما فيه من عطاء ويسيل.

---

(1) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، (7382).

(2) سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، (4091).

تجيء إلى باب الله بطاعة الله وبطاعة رسول الله، وإن الوعاء الذي توضَع فيه الحسنات هو العمل الصالح بنيَّة صالحة، فإنما الأعمال بالنِّيات. فإن تقبل الله منك فذلك المطلوب. لكن أن تسمُوَ همتك إلى طلب مقام الإيمان والإحسان، وطلب الدرجات عند الله عز وجل، لا بد أن يكون اتباعك لرسول الله ﷺ اتباعا دقيقا في الأمر والنهي والفرض والنَّفل، والحرام والحلال، وفي كل أمر. ثم يكون اتباعك له في الخُلق. الخُلق الحسن. الخلق الرديء وعاء مثلومٌ وسِخٌ، لا يصلح أن يكون وعاءً لفضل الله، ولا يستقر فيه.

افْعَلْ ما شئت ثم أَسِئِ الخلقَ، فلقد تنكَّبْت عن فضل الله وزهِدت في فضل الله! قال رسول الله ﷺ يوصي معاذا رضي الله عنه: «**أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل**»[1]، والأحاديث في هذا كثيرة، أذكر منها وأُذَكِّر.

قال رسول الله ﷺ: «**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[2]، رواه الإمام مالك رحمه الله في الموطأ. قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**»[3]. قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة القائم الصائم**»[4].

درجة الصائم القائم! درجة! درجة بحسن الخلق. صُمْ! قُمْ! تَعبَّدْ ما شئت سنين! وأنت متكبرٌ على خلق الله؟ هذا لا يُعوِّض أبدا حسنَ الخلق، بل يَقْدح فيه ويُبْطِل ذلك العمل.

(1) موطأ الإمام مالك، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، (1).

(2) المصدر نفسه، (8).

(3) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، (10106).

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، (4798).

قال رسول الله ﷺ: «**خياركم أحاسنكم أخلاقا الموطَّؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وشِراركم الثَّرثارون المُتفَيْهقون المتشدِّقون**»[1]. هذه علامات التكبر، الثرثارون: معناه التكبر في التعالم، يقرأ كثيرا، ويُحصِّل كثيرا... والمُتفيْهِق من يجتهد لنفسه، ولا حاجة له لمن يُعلِّمه يشرح له، والمتشَدِّق المتكبِّر بالعلم. **سئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال:** «**أحسنُهم خلُقا**»[2]، «**خير الناس أنفعُهم للناس**»[3]، قال رسول الله ﷺ: «**خيارُكم خيركم لأهله**»[4]، وهذه نقطة مهمة جدا، نقف عندها لنحاسبَ أنفسنا.

معشر الإخوان والأخوات، المستمعين إلى كلمتي هذه من أعضاء جماعة العدل والإحسان، وممن شاء الله من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، إن أعز ما يطلبه العبد في حياته أن يخرج من الدنيا وقد قُبل عند الله عز وجل في درجة خيْرِ الناس. وقد قرأنا من أوصافهم ما وصفهم به رسول الله ﷺ، ما شاء الله، ونقرأ فيما بعد أحاديث أخرى. لا تقنع أخي، ولا تقنعي أختي، بأن تكوني من أراذِل الناس وقد أكرمك الله بالإسلام والإيمان، لا تقنعي بمرتبة أواسط الناس، بل اطلب، واطلبي، ولنطلب جميعا، جعلنا الله كذلك، أن نكون من خير الناس.

شروطُ الخيرية الانتسابُ إلى الله عز وجل والتقربُ إليه، وقد تكلمنا آنفا عن ضرورة الصحبة والذكر، والصدق، والعمل الصالح، والعلم وهو من أشرف العمل الصالح، وهذا تعرُّضٌ وسلوك وتقرب إلى الله عز وجل ولكن

(1) شعب الإيمان للبيهقي، حسن الخلق، (7621).

(2) مسند الإمام أحمد، مسند الكوفيين، حديث أسامة بن شريك، (18456).

(3) المعجم الأوسط للطبراني، باب الميم، (5787).

(4) مسند الشاميين للطبراني، مسند معاوية بن صالح، (1977).

بأي وعاء جئت؟ إما تجيء بحُسنِ الخلق وإما ترجع خائبا! ونعوذ بالله أن نخرج من الدنيا خاسرين خائبين!

إن الله سبحانه وتعالى جعل الزواج وواجبات الزوج والزوجة من آياته سبحانه وتعالى، كما جعل سبحانه من آياته الكبرى ما يكون بين الزوج المؤمن والزوجة المؤمنة من مودة وصفاء، وإخلاصٍ وتعامل بالحسنى، وحسن خلق. قال الله عز وجل: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]، آيات!

اعتبرْ تَفكرْ! إن كنت ممن يتفكر، أما إن كنت من أصحاب الصحف والمجلات، فلا كلام لنا معك!

التعامل بين الزوج والزوجة إن لم يُثمِر المودة والرحمة، وهما من آيات الله لقوم يتفكرون، فإنما هو ظلمٌ. قِوامة الزوج المؤمن إن لم تثمر المودةَ ولم تثمر الرحمةَ مع الزوجة فإنها تعَسُّف، وطاعة الزوجة المؤمنة للزوج المؤمن إن لم تُثمرِ المودةَ والرحمةَ، فالقوم لا يتفكَّرون، وليست تأتيهم آيات الله تُذكِّرهم بما فرضه الله. «**خياركم خيركم لأهله**»[2]، وهذا حديث رسول الله ﷺ «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[3]. إذا لم تتشبَّهْ برسول الله ﷺ فلتتشبهْ بالفرعونية، وبالذين لا يتفكرون، الذين لم يثمر زواجهم المودة والرحمة وإنما أثمر العَنَتَ والشقاء.

ويبلُغني عن بعض الإخوان أنهم يُقبلون على الدعوة بشغف وصدق، ويُكرِّسون للدعوة ليلَهم ونهارهم، فأفرح وأقول: الحمد لله الذي جعل من

(1) سورة الروم، الآية 20.

(2) مسند الشاميين للطبراني، مسند معاوية بن صالح، (1977).

(3) سنن ابن ماجه، أبواب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، (1977).

أعضاء هذه الجماعة رجالا ونساء ممن جادوا بحياتهم، بجهدهم ومالِهم على الدعوة. لكن يبلُغُني بعد ذلك أن منهم من لا يُعطي كلَّ ذي حق حقَّه، فيُفرط من حيث كان التفريط. أَفْرَطَ في الجهاد والحركة وفَرَّط في حق أهله، فيُخرِّب بيتَه من حيث يريد أن يبنيَ صرْحَ المجتمعِ الإسلاميّ.

هذا شيء يناقض تماما ما كنَّا عليه، وما نحن عليه، وما ندعو إليه. فليراجع المؤمنون والمؤمنات مواقفَهم. الإحسان إلى الزوجة وإحسان الزوجة إلى زوجها والطاعة والثقة المتبادلة، لا تفريط ولا إفراط! أعطوا للأهل حقَّهم. وأعيدوا قراءة ما وقع بين سيدينا أبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهما، عندما كان أبو الدرداء رضي الله عنه يُفرِّط في حق زوجه فجاءه سيدُنا سلمان رضي الله عنه وقال له: «**إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليه حقا، فأَعطِ لكلّ ذي حق حقَّه**»، **فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبيُّ ﷺ**: «**صدق سلمان**»[1].

خير الناس من يقتدي برسول الله ﷺ ويطيعُه، قال رسول الله ﷺ: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»[2]. حُسْنُ الخلُق مع الأهل في البيت وإعطاء الأهل حقَّهم، ثم الصّاحبِ، ثم الجارِ، ثم يفيض خيرك على الناس أجمعين، ذلك شرطٌ لتكون من خيار الناس ويكونَ علمُك نافعا. قال رسول الله ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[3]، هذا هو العلم، بل أصل العلم، لكن إن كنت تقرأ القرآن وتتعلم القرآن، ولا تطيع ما جاء في القرآن، فماذا تُعلِّم الناس؟ تُعلِّمهم قسوة القلب، والتشكيكَ في عقيدة

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، (1968).

(2) صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب الجار، (518).

(3) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب **خيركم من تعلم القرآن وعلمه**، (5027).

المسلمين، وتعلمهم تكفير الناس أجمعين؟ فما أنت بهذا الذي نُخاطبه، وما أنت هذا الذي يُرجى له أن يكون خيرَ الناس!

نسأل الله عز وجل أن يتوب علينا وأن يغفر لنا وأن يرحمنا!

«**خيركم من يُرجَى خيرُه ومن يُؤمَن شرُّه**»[1]، رجلٌ ضبط النفس وأعاذه الله من الشيطان، فلا يستفزه مستفزٌّ ليفَرِّط في حق أحد، أو يُفْرط في عمل لا يستدعي كل ذلك الجهد. قال رسول الله ﷺ: «**خيرهم** (خير الناس) **بطيء الغضب سريع الفيء**، (الفيء الرجوع من الغضب وضبط النفس، والنفس أمّارة بالسوء إلا من رحم ربي) **وخيرُهم الحَسَنُ القضاءِ، الحَسنُ الطلبِ**»[2]، القضاءُ التعاملُ. إن أقرضَك تَقْضي له في الوقت، إلا بعذرٍ وتعتذرُ، وإن أقرضتَه فأَحْسِنِ الطلبَ، وأَنْظِره إلى مَيسُرة.

أوصي نفسي وإخواني وأخواتي بأزواجهم، وأن يُعطوا كل ذي حق حقه، وأعيد قولة رسول الله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله**»[3]. فكيف بالله أيها الوافد، أيتها الوافدة، تريد أن يحبكَ الله، وتريدين أن يحبكِ الله، ولا تقتدي، ولا تقتدين برسول الله؟ تريدين اللَّحاق به، وتريدين درجة المتبعين له الذين يحبهم الله، ولا تتبعين سنته في عملك؟ وفيما أخبركِ به وأخبركَ به: «**خيركم خيركم لأهله**»؟

أُعطيكم ميزانا لا يخطئ، لأنه تطبيق لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، مما تحدثنا عنه آنفا، وبضدِّها تتميز الأشياءُ، يحاسب كل واحد منا نفسَه فيقول: هل كلما ازددتُ تقدُّما في الدعوة وفي سُلَّم التنظيم، في قيام الليل وصيام النهار،

(1) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، (8812).

(2) مسند الإمام أحمد، مسند أبي سعيد الخدري، (11587).

(3) سنن ابن ماجه، أبواب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، (1977).

وفي حضور مجالس الذكر، أزدادُ تواضعـاً لله ولعباد الله، وحُسنَ خلقٍ، أم يسوء خلقي، وأكره الناس، وأَسْتعلي على الناس، وأتكبر وأنتفخُ وأتفيْهَق وأتشَدَّق وأُثرْثِر؟ ميزان لا يخطئ!

إنِ ازددتُ تواضعا فذلك دليل على أنني أتقرب إلى الله، وأنني في رحمة الله، أما إن ازددتُ ترفُّعا وتكبرا فذلك دليلٌ لا يخطئُ على أنني من الذين لا يحبهم الله، وأنني أزداد من الله بُعْداً. نعوذ بالله!

يا حسرة على العباد إن خرجوا من الدنيا وقد عَرض عليهم كتابُ الله وسنة رسوله ﷺ، طريقا واضحة، فلم يتَّبعوا، وخرجوا من الدنيا بحصيلة «قال زيد وقال عمرو». قرأوا ألف كتاب وكتاب، وشُهد لهم بأنهم كيت وكيت!

كان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون جيدا هذا المعيارَ، معيارَ التواضع، لأنهم رُبُّوا بصحبة الذي لا ينطق عن الهوى، رسولِ الله ﷺ، فعُلِّموا أحسن التعليم ورُبُّوا أحسن التربية. فمن ذلك قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما ولاَّه المسلمون أمرَهم قال: «إنني أريد رجلا إذا كان في القوم، وليس أميرَهم، كان كأنه أميرُهم». عليه طراوة، ومحبة، وحسن خلق، فيكون في الجمع كأنه الأمير، لتميُّزِه بالعلمِ والخلُق والنُّورانية القَلبية تُشِعُّ على مُحيَّاه. عن مثل هذا الرجل كان يبحث عنه سيدنا عمر رضي الله عنه. قال: «وإذا كان أميرَهم، كان كأنه واحدٌ منهم»[1]، أمير لكنه متواضعٌ لا يُشهَد منه تكبرٌ. هكذا كان الصحابة، وهكذا كان رسول الله ﷺ معهم، كانوا يُجلُّونه أيما إجلال، وكان يجلس في مجالسهم ويستمع لأحاديثهم، ويقف مع الأَمَة حتى يقضيَ حاجتها في السوق. كان مثالا! أعيدوا قراءة السيرة النبوية!

---

(1) حياة الصحابة، الكاندهلوي، الجزء الثاني، ص 289، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 1999.

قال: «وإذا كان أميرَهم، كان كأنه واحدٌ منهم» وما يفسد الناسَ ويُدخل فيهم الكبرياءَ، ويفسد أخلاقَهم إلا الرئاسة وحبُّ الرئاسة، والشُّفُوف على الأقران؟ قيل لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: لماذا لا تُوَلِّي الأكابرَ من الصحابة رضي الله عنهم؟ وكان لا يوَلّيهم ولا يبعثهم أمراء على الأمصار، قال، وهذه الكلمة حكمة عظيمة نقف عندها لنتأمل: «أكره أن أُدنِّسَهم بالعمل»[1].

تُرى ما هو هذا التدْنيس الذي يهدِّد أكابر الصحابة رضي الله عنهم، أتُرى هو سرقة الأموال؟ حاش لله، هذا لا يُتصور فيهم! أتُرى هو معاصي العامَّة من الناس؟ هذا لا يُتصوَّر في أكابر صحابة رسول الله ﷺ. لكن الذي يخشى عمرُ بن الخطاب أن يُدنِّسهم به هو ما خَشِيَه رسول الله ﷺ وحذَّر منه حيث قال: «**والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم، كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتَنافسوها كما تنافسُوها**»[2]. الدنيا والمال، إنما يُغري صغارَ النفوس، لكن حبَّ الرئاسة والشفوفَ على الأقران قريبٌ إلى النفوس البشريَّة، إلا من عَصَمَه اللهُ وهم الرسلُ عليهم السلام. وإذا كان أكابر صحابة رسول الله ﷺ مُعرَّضين لمثل هذا، فنحن أكثرُ تعرضا. نسأل الله عز وجل أن يحفظنا! مَزْلَقة حب الرئاسة!

تحبُّ الرئاسة وتستلذُّها وتستحْليها، فإذا بكَ فرعون من الفراعنة!

أيها الإخوة الكرام، إن الذِّلَّة على المؤمنين، وهذا كلام موجَّهٌ إلى المسؤولين في الجماعة، تقتضي منا أُخُوَّة صارمة، كما نعبِّر، فالذِّلة على المؤمنين لا تتَنافى مع النَّصيحة، ولا تتنافى مع الصَّرامة الأَخَويَّة ولا تتنافى

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الثالث، ص 214، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1990.

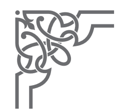
(2) مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث عمرو بن عوف، (17234).

مع الصدق. نكون منافقين إذا أفرطنا في الذلة على المؤمنين، وفهمناها فهما مُعْوَجّـًا، فنسكتُ على المنكر نراه في رؤساء الجماعة وفي المسؤولين.

الواجب علينا أن ننصحَ. أما المُجاملة فشيءٌ رديء جدا، وتعبير سافل. أجامله وأتجمل إليه فأتقرب إليه، وأتودَّد بكلام لطيف حلو يسْتسِيغه، هذا يسمَّى في الدين نفاقا! وآية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمِن خانَ. وهذه خيانة. بل فيها كل صفات النفاق!

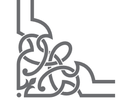
الذلة على المؤمنين لا تتنافى مع النصيحة الصادقة المخلصة، وإلا انهارت الجماعة وذهبت أدراجَ الرياح. نعوذ بالله!

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. نفعني الله وإياكم بالقرآن الكريم وبحديث سيدنا رسول الله المصطفى الكريم، اللهم اجعل لنا فرجا ومخرجا من ضيقنا في أنفسنا ومن تضييق الناس علينا، وانصرنا وافتح لنا.




﴿أَعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



(1) سورة البقرة، الآيتان 284-285.

الفهرس


تم بحمد الله